عدو[١] .

وأظلم يحتمل أن يكون غير متعدٍ وهو الظّاهر . وأن يكون متعدّياً منقولاً من ظلم اللّيل[٢] .

ومعنى قاموا وقفوا وثبتوا فى مكانهم . ومنه : قامت السّوق إذا ركدت ، وقام الماء جمد[٣] وعن ابن عبّاس أى ثبتوا على نفاقهم[٤] وذكر الضوء والظّلمة : « تمثيلٌ لإزعاج ما فى القرآن من الحجج قلوبهم وتصديقهم لما سمعوا فيه ممّا يحبّون ، ووقوفهم عمّا يكرهون »[٥] .

لو حرف تَمَنٍّ وفيه معنى الجزاء ، وجوابه اللاّم[٦] ويقول أبو حيان[٧] : « لو ، عبارة سيبويه أنّها حرفٌ لما كان سيقع لوقوع غيره ، وهو أحسن من قول النّحويّين إنّها حرف امتناع لامتناع لاطّراد تفسير سيبويه رحمه الله فى كلّ مكان جاءت فيه لو .... وتشرب لو معنى التّمنّى » .

الشّىء ما يصحّ أن يعلم ويخبر عنه[٨] ومفعول شاء محذوف لأنّ الجواب يدلّ عليه ، والمعنى : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها . ولقد تكاثر هذ الحذف فى شاء وأراد لا يكادون يبرزون المفعول إلاّ فى الشّىء المستغرب كنحو قوله : فلو شئت أن أبكى دماً لبكيته ، وقوله تعالى : ﴿ لو أردنا أن نتّخذ لهوًا لاتخذناه من لدنّا ﴾ . و ﴿ لو أراد الله أن يتّخذ ولدا ﴾[٩] وشاء بمعنى أراد . وحذف مفعولها جائز لفهم المعنى . وأكثر ما يحذف مع لو لدلالة الجواب عليه[١٠] والتقدير هنا : ولو شاء الله إذهاب سمعهم وأبصارهم[١١] أى ولو شاء الله لزاد فى قصف الرّعد فأصمّهم أو فى ضوء البرق

---

(١) الكشّاف ١٦٩/١
(٢) الكشّاف ١٦٩/١
(٣) الكشّاف ١٧٠/١ وانظر البحر المحيط ٩١/١
(٤) تفسير القرطبىّ ص ١٩٣
(٥) الجلالين .
(٦) تفسير القرطبىّ ص ١٩٣
(٧) البحر المحيط ٨٨/١ ، ٨٩
(٨) الكشّاف ١٧١/١ والبحر المحيط ٨٩/١
(٩) الكشّاف ١٧٠/١
(١٠) البحر المحيط ٨٩/١
(١١) البحر المحيط ٩١/١

فأعماهم[١] .

وخصّ السّمع والأبصار فى قوله : لذهب بسمعهم وأبصارهم لتقدّم ذكرهما فى قوله : فى آذانهم . وفى قوله : يخطف أبصارهم . وقال بعضهم : تقدّم ذكر الرّعد والصّواعق ومدركهما السّمع والظّلمات والبرق ومدركهما البصر[٢] وأضاف القرطبى[٣] : « أو لأنّهما أشرف ما فى الإنسان . وقرئ بأسماعهم على الجمع » وجاء فى الجلالين : ولو شاء الله لذهب بسمعهم بمعنى أسماعهم . وأبصارهم الظّاهرة كما ذهب بالباطنة » وعن ابن عبّاس : ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم لما تركوا من الحقّ بعد معرفته[٤] .

القدرة : القوّة على الشّى والاستطاعة له ، والفعل قَدِرَ ومصادره كثيرة . قَدِر قدرة بتثليث القاف ومقدرة بتثليث الدّال وقدرا[٥] وأتى بصيغة المبالغة « قدير » إذ لا أحقّ بها منه تعالى[٦] فإن قلت : ممّ اشتقاق القدير ؟ قلت : من التّقدير لأنّه يوقع فعله على مقدار قوّته واستطاعته وما يتميز به عن العاجز[٧] وأجمعت الأمّة على تسمية الله تعالى بالقدير . فهو سبحانه قدير قادر مقتدر . والقدير أبلغ فى الوصف من القادر . قاله الزّجّاجىّ[٨] وإنّما خَصَّ هنا تعالى صفته التى هى القدرة بالذّكر دون غيرها لأنّه تقدّم ذكر فعلٍ مضمنه الوعيد والإخافة . فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك والله أعلم[٩] قال ابن عباس أى إنّ الله على كلّ ما أراد بعباده من نقمةٍ أو عفوٍ قدير[١٠] .

وبعد هذه الجولة الواسعة مع الآية الكريمة من زاوية معنى مفرداتها من الوجهة اللّغويّة غالباً ، نتحوّل مستعينين بالله تعالى إلى تأمّلها . وعلى غرار نظرتنا ذات الشّقين الظّاهر

---

(١) الكشّاف ١/١٦٩ وانظر ص ١٧١
(٢) البحر المحيط ١/٩٢ وانظر تفسير القرطبى ص ١٩٣
(٣) تفسير القرطبى ١٩٣
(٤) تفسير الطّبرىّ ١/١٢٤ وتفسير ابن كثير ١/٥٦
(٥) البحر المحيط ١/٨٩
(٦) البحر المحيط ١/٩٢
(٧) الكشّاف ١/١٧٢
(٨) تفسير القرطبى ص ١٩٣
(٩) تفسير القرطبىّ ص ١٩٤
(١٠) تفسير ابن كثير ١/٥٦

والباطن للآية الكريمة السّابقة ، ستكون نظرتنا لهذه الآية الكريمة .

وبين يدى هذه النّظرة نستطيع أن نتبيّن أنّ الآية الكريمة تتعامل مع العين بعد أن تعاملت الآية الكريمة السّابقة مع الأذن . وإنّ ترتيب حاستى السّمع والبصر وفق هذا النّسق فى الآيتين الكريمتين يلفت انتباهنا إلى ما يلى .

أولاً : يسير ترتيب الحديث عن هاتين الحاسّتين السّمع والبصر ، وفق التّرتيب الطبيعىّ الغالب فى آى الذّكر الحكيم بناءً على أهمّيّة كلٍّ من الحاستين .

ثانياً : بالنّظر إلى المظهرين المتعلّقين بالصّيّب المزعجين للكافرين والمنافقين من بين هذه المتعلّقات الأربعة الظّلمات والرّعد والبرق والصّواعق يتبيّن أنّهما على التّوالى : الصّواعق ويلحق بها الرّعد ، ثمّ البرق . وإنّ كلاً من الآيتين الكريمتين تتحدّث عن كلٍّ من المزعجين لأصحاب الصّيّب وللمنافقين .

ثالثاً : بالنّظر إلى حديث كلٍّ من الآيتين الكريمتين عن المزعجين لأصحاب الصّيّب وللمنافقين يتبيّن من حديث أولاهما عمّا له علاقةٌ بحاسّة السّمع أنّ فى ذلك إيحاءً بقوّة هذ المزعج من ناحية وبقوّة حاسّة السّمع من ناحيةٍ أخرى للدّرجة الّتى يصحّ أن يفهم معها أنّ الإنسان غير قوىّ السّيطرة على هذه الحاسة ، وهو بحاجةٍ ، كى يمنع الأذى عنها بواسطة ما خلقت من أجل نقله وإيصاله وهو الصّوت الّذي يكون الآن شديداً ، هو بحاجةٍ إلى أن يستعين بجارحةٍ أخرى وهى اليد الّتى يحتاج إلى أناملها كى يجعلها فى مسمعيه . ودليلاً على شّدة إزعاج صوت الصّواعق من ناحية وصوت قوارع الزّواجر من ناحيةٍ أخرى عُبّر عن الأنامل بالأصابع .

وإنّ النّظرة إلى الآية الكريمة من زاوية الشّقّ الظّاهر تستطيع أن تنتهى إلى كون أصحاب الصّيّب الموجودين فى العراء والّذين أحاط بهم الصّيّب بظلمات دَجْنه المضافة إلى حنادس اللّيل المظلم ، وبرعده وبرقه وصواعقه ، والّذين يحرصون على التّخلّص من ذلك البلاء بالسّير بحثاً عن ملجأٍ أو مغارات أو مُدّخل ، هم لا يستطيعون أن يسيروا خطوةً واحدةً إلى الأمام إلاّ إذا أضاء البرق لهم السّبيل . ورغم كون البرق شديداً ، وبخاصّةٍ فى حقّ أناسٍ مكشوفين فى العراء تلفّهم ظلمات الأرض والسّماء ،

ورغم كون القوم تتأذىّ أعينهم لشدّة البرق الخاطف للدّرجة الّتى يكاد البرق معها يخطف أبصارهم ويذهب بها معه إلى غير رجعة ، فإنّ القوم الحريصين على السّير قُدُمًا ، والّذين لا يجدون حيلةً ولا يهتدون سبيلا ، لا يستطيعون إلاّ أن ينظروا إلى نور البرق كى يهتدوا به ، ولا يستطيعون إلاّ أن يجعلوا أعينهم مفتوحة ، رغم الخطر الذى تتعرّض له ، استعداداً دائماً للانتفاع من البرق الخاطف المباغت مجيئه الفورىّ رحيله . إنّ البرق المتتابع مجيئه عادةً فى مثل حال ذلك الصيّب ، كلّما أضاء لهم الأفق وأنار لهم الطّريق مشَوْا فى نوره متحاشين السّبل المتفرّقة المرغوب عنها ، سالكين السَّبيل الواحدة الرّاغبين فى سلوكها . فإذا أظلم عليهم البرق قاموا فى أماكنهم ولصقوا بها ، لأنّ استمرار المشى فى طريقٍ محفوف بالمخاطر أمرٌ لا تحمد عواقبه غالباً ، خاصّةً وأنّنا بصدد قومٍ حريصين على حياة . أليس فى تضحية القوم بأبصارهم الّتى يكاد يخطفها البرق دليلٌ على حرصهم على الحياة ولو كان ذهاب البصر ثمناً لتلك الحياة ؟ بلى . إذن لا يغامر القوم بهذه الحياة باستمرار المشى فى الظّلمات بالطريق المحفوف بالمخاطر إنّما يقفون حيث انتهوا فى ضوْء البرق ثمّ يعاودون الكرّة مع البرق كلّما أضاء لهم ، وإن كان فى ذلك تعريضٌ بأبصارهم للخطر ولكنّ الحياة أشهى وأغلى .

لقد فهمنا من وضع أصحاب الصيّب أصابعهم فى آذانهم خوفهم على حاسّة السّمع ، ونفهم من استطاعتهم المشى فى الحالات الّتى يبرق فيها البرق فقط ، واعتمادهم على هذه الحاسّة وحدها ، فبدونها يتحيّرون وهم العمى وليس لديهم قائد ، وإلاّ تعرّضت حياتهم للخطر لو مَشَوْا فى الظّلمات ، نفهم خوف القوم على حاسّة البصر رغم تضحيتهم بها وتعريضها للخطر . وإنّ الآية الكريمة لتشير فى القول : ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ إلى رحمة الله تعالى الّتى وسعت كل شىء . إنّ رحمته جلّ وعلا لم تشأ أن تزداد قوّة الصّواعق والرّعود وتتتابع كى يذهب سمعهم ، ولم تشأ للبرق أن تزداد قوّته ويتتابع كى يذهب بصرهم . إنّ على القوم أن يفهموا هذه الحقيقة جيّدا ، وأن يعلموا أنّ الله تعالى على كل شىءٍ قدير ، وأن يقدروا رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىءٍ وقد وسعتهم ، وأن يقوموا بواجب شكر النّعمة عليهم بأن يتوبوا إلى الله تعالى وأن يؤمنوا

ويعملوا صالحاً .

وإن النّظرة إلى الآية الكريمة من زاوية الشّق الثّانى الباطن ، تستطيع أن تفهم من قوله تعالى : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ أنّ القوم قد حاولوا بطريقةٍ مّا أن يحموا أبصارهم من أذى البرق الخاطف ، وذلك على غرار محاولتهم حماية آذانهم من أذى الرّعد القاصف والصّواعق بوضع أصابعهم فى آذانهم للحيلولة بين أذى صوت الصّواعق بخاصّة وبين أن يتسرّب إلى تلك الآذان . فما المراد بالبرق فى هذه النّظرة الثّانية الباطنة . إنّه بالمقارنة بين المثلين النّارى والمائى ، وتنزيل نور النّار منزلة نور الهداية الّذى ذهب الله تعالى به لكون المنافقين فى ذواتهم صمًّا بكماً عمياً وتنزيل الرّعد والصّواعق منزلة صوارم أوامر القرآن الكريم وقوارع زواجره ، يتبيّن أنّنا بصدد فريقين من المنافقين ، يصوّر كلٌّ من المثلين طبيعة كلٍّ منهما . ويبدو من كون النّار فى المثل الأول ، وهى خارجيّة ، قد ذهب الله تعالى بها ، وكونهم صمّاً وبكما وعمياً ، أنّ هذا الفريق من المنافقين أشدّ المنافقين سوءًا ، ولا يكاد يوجد بينهم وبين الكافرين كبير فرق . إنهم تركوا فى الظّلمات الّتى كانوا فيها من قبل ، ثمّ هم لا يرجعون عن تلك الظّلمات . فإذا تحوّلنا إلى المثل الثّانى المائى تبيّن أنّ البرق هنا قد حلّ محلّ النّار هنالك . وفرق بين النّار والبرق أنّ النّار فى المثل الأوّل قد انطفأت دفعةً واحدة وإلى الأبد ، وذلك دليلٌ على ظلمات القوم وكونهم أسوأ المنافقين حالاً ، أمّا البرق فى المثل الثّانى فمن سماته الإضاءة المتتابعة والإظلام . وإذا كنّا نزّلنا النّور فى المثل الأوّل منزلة نور الهداية والنّار منزلة دين الإسلام ، ومعجزتُه الكبرى الخالدة هذا الكتابُ العزيز ، فإنّ البرق هو الّذى يحلّ محلّ النّور ، وعليه يكون ضوء البرق بمنزلة نور هداية الذّكر الحكيم والقرآن الكريم الّذى يهدى للطّريقة الّتى هى أقوم . وبناءً على اختلاف طبيعة كلٍّ من النّار والبرق ، من حيث انطفاء النّار مرّةً واحدة وتتابع لمعان البرق ، نستطيع أن نفهم اختلاف طبيعة المنافقين الّذين يدلّ عليهم تتابع لمعان البرق وكونهم أقلّ من السّابقين سوءًا لانتفاعهم المحدود الفينة بعد الفينة ، من نور تعاليم الإسلام . إنّ المنافقين السّابقين انتهى الأمر بهم أخيراً إلى عدم الانتفاع بالكلّيّة من نور القرآن الكريم ، بعكس هذا الفريق الآخر المذبذب ، فَهُوَلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

فكيف عبّرت الآية الكريمة عن هذا التّذبذب وكيف ينتفعون اضطراراً فى الغالب من نور القرآن الكريم وتعاليم الإسلام ؟ لقد تمّ التّعبير فى جزئيّتين كريمتين هذه هى أولاهما . قال تعالى : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ إنّ من سمات من كان فى مثل حال القوم فى العراء أن يخشى على عينيه أن يذهب بنورهما البرق ، وإنّ لدينا دليلاً على هذا الخوف نستنتجه من خوف القوم على آذانهم من الصّواعق ووضعهم أصابعهم فى آذانهم . وعلى الرّغم من خوف القوم من الضّوء الشّديد وبغضهم له خوفاً على أعينهم ، هم لا يستغنون عنه أبداً ، إذ كيف يستطيعون أن يسيروا فى تلك الظّلمات الّتى لا يمكن تبديدها بإيقاد النّار فى ظلّ تلك الظّروف الصّعبة ؟ إنّ القوم مضطرّون للاستعانة بضوء البرق ، بل إنّهم مضطرّون للتّرحيب به وترقّب مجيئه واستبطاء ذلك المجيء . يحدث كلّ ذلك اضطراراً لا اختيارا . وهذه هى حال المنافقين المذبذبين بشأن تعاليم الإسلام ونور القرآن المجيد . إنّهم وقتاً من الأوقات قد ذاقوا حلاوة الإسلام ، واستضاءوا بنور القرآن الكريم وبهدي المصطفى ﷺ ، فى حدود استعدادهم الضّعيف إلى أبعد الحدود ، ثمّ غلبت عليهم شقوتهم ، فآثروا الكفر على الإيمان ، وأحبّوا الكافرين وأبغضوا المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ ، وانتفعوا من نور هدي القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ فى حدود ما يتمشّى مع مصالحهم الذّاتيّة ويحقّق رغائبهم الشّخصيّة . إنّهم فى هذه الحال بمثابة المنتفع من ضوء البرق اضطراراً ، لأنه يهديه السّبيل الّذى لا يمكن له أن يسير فيه دون ذلك النّور من البرق . ولكنّ ذلك البرق خطرٌ على أعين المنافقين ينبغى فى اعتقادهم اتّقاؤه ، وكذلك ضوء تعاليم القرآن الكريم الّذى يستضاء به إلى حين ، هو فى اعتقاد المنافقين خطرٌ ينبغى اتّقاؤه ، لأنّ فيه تحوّلاً عن الكفر وإقبالاً على الإيمان . وهم يعتبرون التّحوّل عن الكفر والدّخول فى الإسلام موتاً ، فينبغى اتّقاء خطر الموت ، وينبغى الانتفاع من التّعاليم فى حدود المصلحة الشّخصيّة فقط ، وينبغى بطبيعة الحال عدم التّورّط بالالتزام بشيءٍ من تعاليم القرآن الكريم والسُّنّة المطهّرة الّتى لا تحقق للمنافقين نفعاً خاصًّا بهم وحدهم خالصاً لهم . وبطبيعة الحال يرفض المنافقون تعاليم الإسلام الّتى ترتبط بها تكاليف عليهم أن يقوموا بها وواجبات عليهم أن يؤدّوها ؛ لأنّ حبّهم للحياة الدّنيا هو الغالب ؛ ولأنّهم

يعتبرون هذه الحياة الدّنيا غاية المنى ومنتهى الطّلب .

وهكذا ينتفع المنافقون من نور هدي القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ ما دام ذلك النّور محقّقاً لمصالحهم الذّاتيّة ، لذا هم يختارون من ذلك النّور ما يحقّق تلك المصالح على غرار سير أصحاب الصّيّب فى نور البرق . ثمّ إنّ المنافقين يتحاشون من نور الإسلام ما يصطدم مع تلك المصالح ، على غرار تحاشى أصحاب الصّيّب أذى ضوء البرق الّذى يكاد يخطف أبصارهم . وإنّ لفظة « كلّما » الّتى تدلّ على تتابع البرق واهتبال القوم فرصة لمعان البرق كى يمشوا فى ضوئه ، تدلّ على حرص المنافقين الشّديد على الانتفاع الشّخصّى من نور هدي القرآن الكريم كلّ مرّة يوحى فيها إلى المصطفى ﷺ بشيءٍ من القرآن الكريم يبيّنه للمؤمنين وكما نخشى أولئك من ضوء البرق أن يخطف أبصارهم ، خشى هؤلاء من نور القرآن الكريم لأنّ فيه تكاليف شاقّةً عليهم وهم إنّما يريدون الجانب النّافع النّاعم من الإسلام وليس الجانب الّذي فيه تكاليف ، يعتبرونها شاقّةً عليهم ، أو مصلحةً عامّة للإسلام والمسلمين ، وهم يبغضون الإسلام والمسلمين . إنّ هذه الجزئيّة الأولى : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ تعبّر عن جانب الحذر من نور القرآن الكريم والخوف من تعاليم الإسلام ، وهذا الحال يتمشّى مع المنافقين من ناحيةٍ ، ومع أصحاب الصّيّب فى العراء من ناحيةٍ أخرى . وإنّ هذه الجزئيّة الثّانية : ﴿ كلّما أضاء لهم مشَوْا فيه ﴾ تعبّر عن جانب الرّجاء والطّمع فى نور القرآن الكريم .

إنّ المنافقين لا يملّون من الانتفاع الشّخصى ممّا يوافق هواهم من تعاليم الإسلام . إنّهم فى الحرص على المصلحة الذّاتية ينطلقون بكلّ عزيمةٍ وثبات لا يَلْوون على شيء . قال تعالى : ﴿ كلّما أضاء لهم مشوا فيه ﴾ وإنّ المنافقين لتظلم عليهم الدّنيا حينما يتبيّنون فى نور هدي القرآن الكريم تكاليف ذاتيّة ، أو مصلحةً جماعيّةً للإسلام والمسلمين . إنّ نفوسهم المظلمة ، وانسداد كلّ المنافذ الّتى يمكن أن يمرّ خلالها صوت الحقّ أو نور الهداية ، تجعلهم حيارى متبلّدين حيرة الّذين أظلم عليهم البرق وتبلّدهم ، فقاموا حيث هم ، ورسخوا فى أماكنهم . إنّهم لا يستطيعون مواصلة السّير كى يلحقوا بركب المؤمنين فى النّور المبين ، ولا يستطيعون أن يعودوا أدراجهم حيث المنافقون الخالصو

النّفاق القريبون فى اعتقادهم من الكافرين ، لأنّهم قد ذاقوا شيئاً من حلاوة الإيمان واهتدوا بشيءٍ من نور القرآن والسُّنّة المطهّرة ، وسمعوا شيئاً من صوت الحقّ إنّهم بمثابة المنبتّ . وما كان لهؤلاء المنبتّين إلاّ أن يقطعوا الطّريق على متن تعاليم الإسلام كلّها ، لأنّ تعاليم هذا الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده كلٌّ لا تقبل التّجزئة ولا تخضع للانتقاء أو الاختيار وقد قال تعالى[1] : ﴿ فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا فى أنفسهم حَرَجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ أفحكم الجاهليّة يبغون . ومن أحسن من الله حُكْماً لقومٍ يوقنون ﴾ .

إنّ للمنافقين فهماً عجيباً للإسلام وموقفاً غريباً من هديه ونور تعاليمه . ويلاحظ أنّ حديث الآية الكريمة عن إضاءة البرق وإظلامه على المنافقين يشمل بدرجةٍ كبيرةٍ الظّلمات الخارجيّة وبدرجةٍ أقلّ الدّاخلية ، وهذه الظّلمات الدّاخلية يشملها القول : ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ ويلاحظ أنّ التّحوّل إلى الظّلمات الدّاخليّة فى هذا المثل بعد الحديث عن الظّلمات الخارجيّة ، يسير على غرار المثل السّابق الّذى كان فيه هو الآخر التّحوّل إلى الظّلمات الدّاخلية بعد الحديث عن الظّلمات الخارجيّة .

فمع الحديث عن الظّلمات الدّاخليّة فى هذه الجزئيّة الكريمة . قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ من الواضح ابتداءً أنّ هذه الجزئيّة الكريمة تقابل بشأن المثل النّارىّ الآية الكريمة : ﴿ صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون ﴾ وبما أنّ هذه الآية الكريمة تتحدّث عن ظلمات القوم الدّاخلية القابعة فى أعماق أنفسهم والّتى عبّر عنها بكون القوم صمًّا عن سماع صوت الحقّ سماع قبول ، بكماً عن الخير فهم لا يتفوّهون به ، عمياً عن نور الهداية لا يبصرونه ، فهذا معناه أنّ هذه الجزئيّة الكريمة ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ تتحدّث هى الأخرى عن ظلمات القوم الدّاخليّة القابعة هى الأخرى فى أعماق أنفسهم والّتى عبّر عنها بذهاب سمع القوم وأبصارهم .

---

(١) سورة النّساء ٦٥ (٢) سورة المائدة ٥٠

وهذا معناه بشأن المثل النّارىّ الأوّل أنّ الظّلمات الخارجيّة قد أطبقت بسبب ذهاب الله تعالى بنور القوم ، وبشأن المثل المائىّ أنّ الظّلمات الخارجيّة تتابعت بسبب إظلام البرق عليهم الفينة بعد الفينة . وإذا كان ذهاب سمع القوم بسبب اشتداد أصوات الصّواعق وتتابعها ، وذهاب أبصار القوم بسبب استمرار أضواء البروق وتلاحقها ، على نحو ما تبيّن من النظرة الأولى إلى المثل من وجهه الظّاهر ، فكيف يتمّ ذهاب سمع القوم وأبصارهم فى ضوء النّظرة الثّانية إلى المثل من وجهه الباطن ؟

إنه فى ضوء نظرتنا إلى الآية الكريمة بشأن المثل النّارىّ : ﴿ صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون ﴾ وكون القوم لإصرارهم على الإعراض عن سماع دعوة الحقّ بمنزلة من ولد أصمّ ، ولإصرارهم على الإعراض عن قول الخير بمنزلة من ولد أبكم ، ولإصرارهم على إغماض أعينهم عن نور الهداية بمنزلة من ولد أعمى ، إنّه فى ضوء تلك النّظرة تكون نظرتنا إلى الجزئية الكريمة ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ إنّ ذهاب السّمع بسبب الصّواعق دليلٌ على ذهاب سمع القوم بمشيئة الله تعالى جزاءً وفاقاً على إعراضهم عن سماع دعوة الحقّ وبالتّالى لا يزدادون بتوالى قصف رعود آى الذّكر الحكيم وصواعقه إلا صمماً على صمم ، ويتساوى بالتّالى حصيلة كلٍّ من ازدياد صواعق الصّبّ وتوالى نزول آى الذّكر الحكيم . فكما أنّ الأصمّ لا يؤتى ازدياد أصوات الصّواعق ثماره فى حقّه ، كذلك لا يؤتى توالى نزول آى الذّكر الحكيم ثماره فى حقّ هذا الفريق الأصمّ من النّاس . وإنّ الشّىء ذاته يقال عن ذهاب الأبصار . فكما أنّ توالى البرق الخاطف لا يغيّر من حقيقة الأعمى شيئاً ، كذلك توالى نزول آى القرآن الكريم الّذى يهدى للطّريقة الّتى هى أقوم ، لا يغيّر من حقيقة عمى القلوب والبصائر شيئاً ، بل لعلّه يزيدها عمىً إلى عماها .

ويفهم من القول : ﴿ ولو شاء الله ﴾ أنّ رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىءٍ قد وسعت هؤلاء المنافقين الّذين استضاءوا وقتاً من الأوقات بنور هدى القرآن الكريم والرّسول العظيم ، فلم يشأ الله تعالى أن يذهب بسمعهم وأبصارهم ، فلا زالت آذانهم قابلةً لأن تتجوّل مستمعةً صوت دعوة الحقّ سماع قبول ، ولا زالت أعينهم قابلةً

لأن تتحوّل مبصرةً نور هدى القرآن الكريم والرّسول العظيم مستضيئةً به ، مهتديةً بهداه . ومن يدرى لعلّ المنافقين ينتفعون بهذا الإمهال ، ويهتبلون هذه الفرصة الّتى قد تكون الأخيرة ، ويضعون للمرّة الأخيرة إحدى قدميهم فى طريق الحقّ منطلقين فيه متوكّلين على الله تعالى ، هاجرين إلى الأبد صفة التّذبذب والقوم الّذين يصحّ فى حقهم مثل قوله تعالى من سورة الحجّ[١] : ﴿ ومن النّاس من يعبد الله على حرفٍ فإن أصابه خيرٌ اطمأنّ به وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه ، خسر الدّنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون الله ما لا يضرّه وما لا ينفعه ، ذلك هو الضّلال البعيد . يدعو لَمَن ضرّه أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ .

وتختم الآية الكريمة بهذه الجزئيّة الّتى تتمشّى مع ما تتضمنّه الآية الكريمة من أشارة إلى قدرة الله تعالى بالذّهاب بسمع القوم وأبصارهم ، وهما أكبر ما يهتمّ له القوم ، وفى ذهابهما دليلٌ على ذهاب غيرهما ، وهذا مِنْ باب الأَوْلى . قال تعالى : ﴿ إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ فلا يعجز الله تعالى شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

ولابن كثير فى تفسيره اجتهادٌ لطيف بحقّ هذين المثلين وتعليقٌ قيّمٌ عليهما وعلى الفئات الّتى تحدّثت عنها السورة الكريمة حتّى نهاية الآية الكريمة العشرين . يقول رحمه الله تعالى[٢] : « فإذا تقرّر هذا صار النّاس أقساماً : مؤمنون خلّص ، وهم الموصوفون بالآيات الأربع فى أوّل البقرة . وكفّار خلّص وهم الموصوفون بالآيتين بعدها . ومنافقون وهم قسمان ، خلّص وهم المضروب لهم المثل النّارىّ ، ومنافقون يتردّدون ، تارةً يظهر لهم لمع الإيمان وتارةً يخبو وهم أصحاب المثل المائىّ وهم أخفّ حالاً من الّذين قبلهم . وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر فى سورة النّور من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله فى قلبه من الهدى والنّور بالمصباح فى الزّجاجة الّتى كأنّها كوكبٌ درّىّ ، وهى قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشّريعة الخالصة الصّافية

---

(١) الآيات ١١ ــ ١٣

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٥ وانظر ص ٥٦ وانظر كذلك كتابنا : « تأمّلات فى سورة الأحزاب » ١٣١ ــ ١٧٧ فى تبيين فئات المنافقين الّذين تحدّثت عنهم السّورة الكريمة .

الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط كما سيأتى تقريره فى موضعه إن شاء الله . ثمّ ضرب مثل العباد من الكفّار الّذين يعتقدون أنّهم على شيءٍ وليسوا على شيء ، وهم أصحاب الجهل المركّب فى قوله تعالى : ﴿ والّذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظّمآن ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ الآية . ثمّ ضرب مثل الكفّار الجهّال الجهل البسيط وهم الّذين قال تعالى فيهم : ﴿ أو كظلماتٍ فى بحرٍ لّجّى يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب ، ظلماتٌ بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ . فقسّم الكفّار ههنا إلى قسمين داعية ومقلّد ، كما ذكرهما فى أوّل سورة الحج : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علمٍ ويتّبع كلّ شيطانٍ مريد ﴾. وقال : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علمٍ ولا هدًى ولا كتاب منير ﴾ . وقد قسم الله المؤمنين فى أوّل الواقعة وفى آخرها وفى سورة الإنسان إلى قسمين ، سابقون وهم المقرّبون ، وأصحاب يمين وهم الأبرار . فنخلّص من مجموع هذه الآيات الكريمات أنّ المؤمنين صنفان ، مقرّبون وأبرار . وأنّ الكافرين صنفان دعاة ومقلّدون . وأنّ المنافقين أيضا صنفان : منافق خالص ، ومنافق فيه شعبة من نفاق كما جاء فى الصّحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النّبىّ ﷺ ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً خالصا . ومن كانت فيه واحدة منهنّ كانت فيه خصلةٌ من النّفاق حتّى يدعها : من إذا حدّث كذب . وإذا وعد أخلف . وإذا ائتمن خان » قال تعالى : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم كلّما أضاء لهم مشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

تعقـــيب

بعد هذه الجولة الواسعة مع المثلين النّارىّ والمائىّ اللّذين ضربا لفريقين من المنافقين نودّ أن نعقّب على الدّراسة المتأمّلة بتدوين بعض الملاحظات :

١ ــ يجىء المثلان تعميقاً لتجارة المنافقين الخاسرة الّتى نصّت عليها الآية الكريمة السّابقة بسبب اشتراء المنافقين الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، والظّلمات بالنّور .

٢ ــ بما أنّ المثل الأوّل نارىّ والمثل الثّانى مائىّ ، ومعروفٌ أنّ هذا النّوع من النّار سريع الانطفاء بالماء ، وبما أنّ النّار قد ذهبت فى المثل الأوّل بسببٍ سماوىّ ، ومن أهمّ متعلّقات ما ينزل من السّماء الماء ، وقد نصّت على هذه الحقيقة الآية الكريمة الّتى ابتدأ بها المثل المائى : ﴿ أو كصيّبٍ من السّماء ﴾ فإنّ فى الوقوف على هذه الحقيقة إيماءً بالعلاقة الوثيقة بين المثلين النّارىّ والمائىّ ، يضاف إلى ذلك أنّ النّار فى المثل النّارىّ الّتى طفئت بسببٍ سماوىّ يصحّ أن تكون قد طفئت بمثل ذلك الصيّب النّازل من السّماء .

٣ ــ ممّا يقوّى الرّأى الّذى ذهب إليه العلماء من كون كلٍّ من المثلين ذا علاقةٍ وثيقةٍ بفريقٍ من المنافقين ، يعتبر أوّلهما ممثّلاً لأبشع صور النّفاق الّتى تقترب من الكفر ، ويعتبر ثانيهما ممثّلاً لأقرب صور النّفاق درجةً من أدنى صور الإيمان ، طبيعة مصدر النّور فى كلٍّ من المثلين ، ذلك النّور الّذى يرمز به لنور الهداية . إنّ مصدر النّور بشأن المثل النّارىّ بشرىّ . إنّه النّار الّتى استوقدها موقد . وإنّ هذه الطّاقة المحدودة لمصدر النّور هنا يتمشّى مع طبيعة هذا الفريق من المنافقين المحدود الاستعداد لتلقّى النور الضّئيل الموافق لهمة المنافقين الضّعيفة . وإنّ مصدر النّور بشأن المثل النّارىّ سماوىّ . إنّه البرق الّذى يلمع فى السّماء من خلال السّحاب . وإنّ هذه الطّاقة غير المحدودة لمصدر النّور هنا ، والّتى لا تتأثر بأىّ تدخّل بشرىّ ولا تخضع له ، تتمشّى فى تقلّبها وتتابعها مع طبيعة هذا الفريق الأقلّ نفاقاً من سابقه ، تلك الطّبيعة المتقلّبة المتلوّنة .

٤ ــ إذا كنّا تبيّنّا تعميق المثلين لصفقة التّجارة غير الرّابحة فى حقّ المنافقين على نحو ما قرّرت الآية الكريمة السّابقة على المثلين ، فإنّا نتبيّن دور التّذييل فى كلٍّ من آيات المثلين

الأربع ، فى تعميق مضمون الآية . إنّ محور الآية الكريمة الأولى يدور حول عودة الظّلمات الشّديدة بعد انطفاء نار المستوقد وذهاب النّور . وإنّ التّعقيب فى الآية الكريمة معمّق للظّلمات القادمة هذه المرّة من الخارج غالباً : ﴿ وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾ . وإنّ التّعقيب فى الآية الكريمة التّالية معمّق للظّلمات النّابعة هذه المرة من ذوات المنافقين الصّمّ البكم العمى الّذين لا يستطيعون هذه المرّة أن يرجعوا لأنّ من متعلّقات الأبكم الأصمّ أنّه أينما توجّهه لا يأت بخير كما صرّح بذلك القرآن الكريم . وحينما يكون المنافقون الآن غير قادرين على الرّجوع على نحو ما صرّح بذلك التّعقيب : ﴿ فهم لا يرجعون ﴾ يكون معنى ذلك أنّهم من قبل غير قادرين على مواصلة السّير بسبب انطفاء النّار وذهاب النّور وإقبال الظّلمات . وكلّ ذلك مفهوم من نفى القدرة على الإبصار فى التّعقيب السّابق ﴿ لا يبصرون ﴾ .

فإذا تحولنا إلى التّعقيب فى الآية الكريمة الثالثة الّتى يبدأ بها المثل المائّى تبيّنّا أنه يتمشّى مع الشّقّ الأوّل للعمل الّذى قام به المنافقون خوفاً على آذانهم من ذهاب الصواعق بها بوضعهم أصابعهم فيها . وهذا هو التّعقيب ﴿ والله محيطٌ بالكافرين ﴾ ومن هؤلاء الكافرين المنافقون الّذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار . ولا ننسى انتشار الصّوت وفى النصّ على الإحاطة إيماءٌ بالقدرة .

فإذا تحوّلنا إلى التّعقيب الأخير فى الآية الكريمة الرّابعة تبيّنّا أنّه يتمشّى من ناحيةٍ مع الشّقّ الثّانى للعمل الّذى قام به المنافقون خوفاً على أبصارهم من ذهاب البرق بها ، ويتمشّى من ناحيةٍ أخرى مع عمل المنافقين كاملاً بشقّيه ، ويتمشّى أخيراً مع ظاهرة التّدرّج إلى الأعلى هذه المرّة ، تلك الظّاهرة الّتى نلمحها فى الآيتين الكريمتين اللّتين يتكوّن منهما المثل المائّى ، والّتى عمّقتها التّوطئة للتّعقيب فى القول : ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ فقد جاء لفٌّ لحاسّتى السّمع والبصر بعد نشرهما فى كلٍّ من الآيتين الكريمتين وفق هذا النّسق ذاته . إنّ التّعقيب فى الآية الكريمة الأخيرة : ﴿ إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ معمّقٌ لكلّ مظاهر القدرة فى الآيتين الكريمتين ومتوّج لهما ، بما فى ذلك التّعقيب فى الآية السّابقة المحصور فى الّذين كفروا : ﴿ والله محيطٌ بالكافرين ﴾ إنّ

التّعقيب الأخير شاملٌ لكلّ الخلائق وفى ذلك من الدّلالة على القدرة المطلقة ما لا يخفى خاصّةً وأنّنا بصدد صيغة المبالغة « قدير » . قال تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الّذى استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلماتٍ لا يبصرون . صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون . أو كصيّب من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق حذر الموت . والله محيطٌ بالكافرين . يكاد البرق يَخْطَفُ أبصارهم كلّما أضاء لهم مشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيءٍ قدير ﴾ .

[٤]

توحيد الله تعالى والتّحدّى بالقرآن وثواب المؤمنين وعقاب الكافرين

الآيات ٢١ ــ ٢٧

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟
ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ
رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ
وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾
۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا
فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ
بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ
وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ۠ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

تحدّثت السّورة الكريمة بعد مطلعها الّذى يشكّل آيةً كريمة ﴿ الم ﴾ عن المؤمنين المتّقين المفلحين حتّى تمام خمس آياتٍ كريمات . ثمّ تحدّثت عن الكافرين الّذين يعلنون الكفر فى آيتين كريمتين (٦ ، ٧) ثمّ تحدّثت عن المنافقين مع ضرب المثلين النّارىّ والمائىّ فى ثلاث عشرة آية تمام العشرين .ومعـروفٌ أنّ المنافقين كافرون حقيقةً وإن أظهروا الإسلام . وبتدبّرنا لأصناف النّاس من حيث الإيمان والكفر ، نستطيع أن نرجعهم جميعاً إلى تلك الفئات الثّلاث الّتى تحدّثت عنها السّورة الكريمة حتّى تمام الآية العشرين . وها هو ذا السّياق يتحوّل إلى مخاطبة كلّ النّاس ابتداءً بالآية الكريمة الحادية والعشرين ، فيأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له الّذى خلقهم وخلق الّذين من قبلهم لعلّهم يتّقون . وبهذا يتبيّن حثّ كلّ النّاس على أن يصلوا إلى مرتبة التّقوى الّتى اتّصف بها المؤمنون المهتدون بالقرآن الكريم أوّل السّورة . وبعد النّصّ على عمليّة الخلق يأتى النّصّ على عمليّة الجعل والتّصيير فالله سبحانه وتعالى جعل للنّاس الأرض فراشاً والسّماء بناءً وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من كلّ الثّمرات رزقا للنّاس فعليهم أن يفردوه جلّ وعلا وحده لا شريك له بالعبادة . وبما أنّ معجزة المصطفى ﷺ وهى القرآن الكريم خالدةٌ إلى يوم الدّين فإنّ الّذين هم فى شكٍّ من ذلك يأمرهم السّياق بأن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثل هذا القرآن الكريم وأن يدعوا المتعاطفين معهم من الآلهة المزعومة وغير الآلهة أن يحضروا وأن يكونوا شهداء إن كانوا صادقين فى زعمهم أنهم يستطيعون أن يأتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ من سور الكتاب العزيز . وبما أنهم لن يفعلوا شيئاً فعليهم أن يتّقوا نار جهنّم الّتى وقودها النّاس الكافرون وأصنامهم المصنوعة من الحجارة غالباً . وفى المقابل يُبَشَّر المؤمنون الّذين يعملون الصّالحات بالجنّات الّتى تجرى من تحتها الأنهار والّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر والّتى يتوّج نعيمها بالزوجات المطهّرات من

كلّ أذىً وقذىً وبالخلود فى جنّات النّعيم . وبما أنّ هنالك من أنكر أن يشتمل كلام الله تعالى على ذكرٍ للذّباب والعنكبوت وما إليهما فقد بيّن السياق أنّ الله سبحانه وتعالى لا يستحى ولا يخشى أن يضرب مثلاً مّا بعوضةً فما فوقها فى الكبر أو فى الصّغر . وهل يستطيع المخلوقون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له؟ وهل يستطيعون أن يأتوا بمثل أصغر سور القرآن الكريم المعجز بمعناه ومبناه وفيه ذكر الذّباب والبعوض والعنكبوت؟ إنّ الّذين آمنوا يعلمون أنّ القرآن الكريم هو الحقّ من ربّهم جلّ وعلا وأمّا الّذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً . إنّ الله سبحانه وتعالى يضلّ بالمثل وبالقرآن كثيراً ويهدى كثيراً وما يضلّ به إلاّ الفاسقين ، الّذين ينقضون عهد الله بعد ميثاقه وتوكيده والّذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض . إنّ أولئك هم الخاسرون حقّا .

الآيــة رقــم (٢١)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها النّاس اعبدوا ربّكم الّذى خلقكم والّذين من قبلكم لعلّكم تتقون ﴾ .

يا حرف نداء[١] وضع فى أصله لنداء البعيد ، صوت يهتف به الرّجل بمن يناديه . وأمّا نداء القريب فله أىْ والهمزة . ثم استعمل فى مناداة من سها وغفل وإن قرب ، تنزيلاً له منزلة من بعد . فإذا نودى به القريب المفاطن فذلك للتّأكيد المؤذن بأنّ الخطاب الّذى يتلوه معنىٌّ به جدّا[٢] وعلى كثرة وقوع النّداء فى القرآن لم يقع نداءٌ إلاّ بها ، وهى أعمّ حروف النّداء إذ ينادى بها القريب والبعيد والمستغاث والمندوب[٣] .

أىّ منادى مفرد مبنىّ على الضّمّ لأنه منادى فى اللّفظ[٤] وهى وصلة لنداء ما فيه الألف واللاّم ، لمّا لم يمكن أن ينادى ، توصّل بنداء أىّ إلى ندائه وهى فى موضع

---

(١) البحر المحيط ١/٩٢
(٢) الكشّاف ١/١٧٢
(٣) البحر المحيط ١/٩٣
(٤) تفسير القرطبى ص ١٩٤

نصب[١] .

وها للتّنبيه[٢] وهى مقحمةٌ بين الصّفة وموصوفها لفائدتين ، معاضدة حرف النّداء ومكاتفته بتأكيد معناه ، ووقوعها عوضاً ممّا يستحقّه أىّ من الإضافة[٣] وأكثر استعمالها مع ضمير رفعٍ منفصل مبتدأ مخبر عنه باسم إشارةٍ غالباً ، أو مع اسم إشارةٍ لا لبعد[٤] .

وارتفع النّاس على الصّفة على اللّفظ ، لأنّ بناء أىّ شبيه بالإعراب فلذلك جاز مراعاة اللّفظ[٥] فالّذى يعمل فيه حرف النداء هو أىّ . والاسم التّابع له صفته كقولك : يا زيد الظّريف ، إلاّ أنّ أيّاً لا يستقلّ بنفسه استقلال زيد فلم ينفكّ من الصّفة . وفى هذا التّدرّج من الإبهام إلى التّوضيح ضربٌ من التّأكيد والتّشديد[٦] .

قال علقمة ومجاهد : كلّ آيةٍ أوّلها : ﴿ يا أيّها النّاس ﴾ فإنّما نزلت بمكّة . وكلّ آيةٍ أوّلها : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ﴾ ، فإنّما نزلت بالمدينة . قلت : وهذا يردّه أنّ هذه السّورة والنّساء مدنيّتان وفيهما :﴿ يا أيّها النّاس ﴾ . وأما قولهما فى :﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ﴾ فصحيح . وقال عروة بن الزّبير : ما كان من حدٍّ أو فريضةٍ فإنّه نزل بالمدينة . وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنّه نزل بمكّة وهذا واضح[٧] قال ابن عبّاس : ﴿ يا أيّها النّاس ﴾ خطابٌ لجميع من يعقل[٨] .

والعبادة هنا عبارةٌ عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصل العبادة الخضوع والتّذلّل . يقال : طريقٌ معبّدة إذا كانت موطوءةً بالأقدام . قال طرفة :

وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ معبَّد

والعبادة الطّاعة . والتّعبّد التّنسّك[٩] .

---

(١) البحر المحيط ١/٩٤
(٢) تفسير القرطبى ص ١٩٤
(٣) الكشّاف ١/١٧٤
(٤) البحر المحيط ١/٩٣
(٥) البحر المحيط ١/٩٤
(٦) الكشّاف ١/١٧٣
(٧) تفسير القرطبىّ ص ١٩٤ وانظر الكشّاف ١/١٧٢ والبحر المحيط ١/٩٤ وتفسير القرطبى ص ١٩٤
(٨) انظر البحرالمحيط ١/٩٣
(٩) تفسير القرطبى ص ١٩٥ وصدر بيت طرفة وهو من المعلّقة (مختار الشعر الجاهلى ١/٣١٠)
تُبارى عِناقاً ناجياتٍ وأتْبَعَتْ .

والرّب ينقسم على ثلاثة أقسام ، فيكون الرّبّ بمعنى :

(أ) المالك . يقال : ربّه يربّه ربّاً ملكه . والعباد مربوبون لله عزّ وجل أى مملوكون .

(ب) السّيّد المطاع . قال الله تعالى[١] : ﴿ أمّا أحدكما فيسقى ربّه خمرا ﴾ أى سيّده .

(جـ) المصلح . يقال : ربّ الشّىء إذا أصلحه . وربّ ولده والصبىّ يربّه ربّاً بمعنى ربّاه . والمطر يربّ النّبات والثّرى وينمّيه[٢] وربّ مصدر ، وصف به للمبالغة[٣] على أحد وجوه الوصف بالمصدر . أو اسم فاعل حذفت ألفه فأصله راب ، كما قالوا : رجل بارٌّ وبرّ[٤] .

والخلق : إيجاد الشىء على تقديرٍ واستواء يقال : خلق النّعل إذا قدّرها وسوّاها بالمقياس[٥] ويقال : خلقت الأديم للسّقاء إذا قدرته قبل القطع[٦] قال زهير :

ولأنت تَفْرى ما خَلَقْت وبعـ ـض القوم يخلق ثمّ لا يَفْرى[٧]

وقال الحجّاج : ما خلقت إلاّ فريت . ولا وعدت إلاّ وفيت[٨] والمعنى الثّانى للخلق الإنشاء والاختراع والإبداع . قال الله تعالى : ﴿ وتخلقون إفكا ﴾[٩] .

وقبل : ظرف زمان ولا يعمل فيها عاملٌ فيخرجها عن الظّرفية إلاّ مِنْ . وأصلها وصفٌ ناب عن موصوفه لزوماً . فإن قلت : قمت قبل زيدٍ فالتّقدير : قمت زماناً قبل زمان قيام زيد ، فحذف هذا كلّه وناب عنه قبل زيدٍ[١٠] .

---

(١) سورة يوسف ٤١ (٢) انظر اللّسان « ربب » .

(٣) انظر الكشّاف ١/٤٢ .

(٤) البحر المحيط ١/١٩ وانظر دراستنا للآية الكريمة من سورة الفاتحة : الحمد لله ربّ العالمين . فى كتابنا : تأملاتٌ فى سورة الفاتحة .

(٥) الكشّاف ١/١٧٦ (٦) تفسير القرطبى ص ١٩٥ .

(٧) البحر المحيط ١/٩٣ ومختار الشّعر الجاهلىّ ١/٢٦٥ وتفسير القرطبىّ ص ١٩٥ والفَرْى : القطع .

(٨) تفسير القرطبى ص ١٩٥ (٩) تفسير القرطبى ص ١٩٥

(١٠) البحر المحيط ١/٩٣ .

ولعلّ حرف ترجٍّ فى المحبوبات وتوقّع فى المحذورات . ولا تستعمل إلاّ فى الممكن . لا يقال : لعلّ الشّباب يعود[١] ومن العلماء من يرى أنّ لعلّ هنا على بابها من التّرجّى والتّوقّع . والتّرجّى والتّوقّع إنّما هو فى حيّز البشر ، فكأنّه قيل لهم : افعلوا ذلك على الرّجاء منكم والطّمع أن تعقلوا وأن تذكروا وأن تتّقوا . هذا قول سيبويه ورؤساء اللّسان . قال سيبويه فى قوله عزّ وجلّ : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولاً ليّناً لعلّه يتذكّر أو يخشى ﴾ . قال معناه : اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتذكّر أو يخشى . واختار هذا القول أبو المعالى[٢] وجاء فى الجلالين : « ولعلّ فى الأصل للتّرجّى وفى كلامه تعالى للتّحقيق » ويقول الزّمخشرى[٣] : « ولعلّ للتّرجى أو الإشفاق ، تقول : لعلّ زيداً يكرمنى ولعلّه يهيننى . وقال الله تعالى : لعلّه يتذكّر أو يخشى . لعلّ السّاعة قريب . ألا ترى إلى قوله : والّذين آمنوا مشفقون منها . وقد جاءت على سبيل الإطماع فى مواضع من القرآن ، ولكن لأنّه إطماعٌ من كريمٍ رحيم إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة ، لجري إطماعه مجرى وعده المحتوم ووفائه به » .

لعلّكم تتّقون : أى لعلّكم أن تجعلوا بقبول ما أمركم الله به وقايةً بينكم وبين النّار . وهذا من قول العرب : اتّقاه بحقّه ، إذا استقبله به . فكأنّ جل دفعه حقّه إليه وقايةً له من المطالبة . ومنه قول علىّ رضى الله عنه : كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا بالنّبىّ ﷺ ، أى جعلناه وقايةً لنا من العدوّ . وقال عنترة :

ولقد كررت المُهْر يَدْمَى نَحْرُه حتّى اتّقتنى الخيل بابنى حِـذْيم[٤]

ومفعول تتّقون محذوف . قال ابن عبّاس الشّرك . وقال الضّحّاك النّار[٥]

وبعد هذه الجولة مع مفردات الآية الكريمة من الوجهة اللّغويّة غالباً نتحوّل إلى

---

(١) البحر المحيط ١/٩٣ (٢) انظر تفسير القرطبى ص ١٩٥ ، ١٩٦

(٤) الكشّاف ١/١٧٧

(٥) تفسير القرطبى ص ١٩٦ وابنا حِذْيم قيل هما هرم وحصين ابنا ضمضم المرّىّ ، قتلهما ورد بن حابس العبسىّ ، وكان عنترة قتل أباهما ضمضما فكانا يتوعّدانه .

الدّراسة المتأمّلة .

إنّ ممّا يلاحظ على الآية الكريمة ابتداءً أسلوب الالتفات فيها ، حيث يتمّ التّحوّل إلى مخاطبة النّاس : ﴿ يا أيها النّاس ﴾ بعد أن كان الحديث من قبل عن قِوامْ هؤلاء النّاس وهم المؤمنون والكافرون والمنافقون الغائبون . ومعروفٌ أنّ أسلوب الالتفات يشدّ الانتباه شدّاً بطبعه ، خاصّةً إذا كان ثمّة تحوّلٌ إلى حالٍ أقوى ، كالتّحوّل هنا من حالة الغياب إلى الخطاب ، وكقوله تعالى فى سورة الفاتحة :﴿ إيّاك نعبد وإيّاك نستعين ﴾ ، بعد قوله تعالى : ﴿ الحمد لله ربّ العالمين ، الرّحمن الرّحيم ، مالك يوم الدّين[1] ﴾ .

لقد تحدثتّ السّورة الكريمة ابتداءً عن المؤمنين المتّقين ، مبتدئةً بأهمّ نعوتهم وهى التّقوى الثّمرة اليانعة النّاضجة لتحقّق النّعوت المهمّة الّتى نصّ عليها السّياق ، وتحدّثت بعد ذلك عن الكافرين من زاوية عدم انتفاعهم بإنذار الرّسول ﷺ بسبب انصرافهم هم أنفسهم ، ومن زاوية صرف الله تعالى بعد ذلك قلوبهم ، والختم على أسماعهم ، ووضع الغشاوة على أبصارهم . وتحدّثت بعد ذلك عن المنافقين ، وضربت مثلين ينطبق أحدهما النّارىّ على أشدّ المنافقين نفاقاً للدّرجة الّتى يقتربون فيها من صفات الكفّار الّذين تحدّث السّياق عنهم من ذى قبل ، فثمّة اقترابٌ بين المثل وبين الحديث عن الكافرين ، وينطبق آخر المثلين على المنافقين الّذين يقلّون عن السّابقين نفاقا . والمعروف أنّ القرآن الكريم يتحدثّ عن المنافقين غالباً من زاوية تنوّع درجاتهم واختلاف صفاتهم ، والمعروف أنّ منهم من يقلّ نفاقه على غرار الّذين يصحّ فى حقهم المثل الثّانى المائىّ ، ومنهم من تزداد قلّة نفاقه وضوحاً ، ويستمرّ الابتعاد من النفاق بقدر الاقتراب من الإيمان ، حتّى يكاد يلتقى المنافق بالمؤمن هنا ، تماماً كما كاد يلتقى المنافق بالكافر هنالك . وإنّ الاتّجاه من شدّة النّفاق الّتى قوى ضِرامها بالنّار عماد المثل النّارىّ ، إلى قلّة النّفاق الّتى عمّقها ولطّفها الماء عماد المثل المائى ، مسعفٌ لكلّ الّذى تحدّثت عنهم الآيات الكريمات ، وعُبِّر عنهم بعد ذلك بالنّاس ، بأن يتمثّلوا معانى الأمر الّذى يوجّه إليهم وأن يمتثلوه .

---

(١) انظر مثلاً دراستنا لهذه الظّاهرة فى كتابنا : « تأمّلات فى سورة الفاتحة » .

وإنّ هذه النّظرة لأبعاد معنى لفظة النّاس فى الآية الكريمة قوّةٌ للرّأى الّذى يذهب إلى كون المراد بالنّاس المخاطبين فى الآية الكريمة جميع من يعقل . وهذا رأى ابن عبّاس رضى الله عنهما(١) .

وبما أنّ الخطاب شاملٌ للنّاس بجميع فئاتهم ، وسبق أن تحدّثت الآيات الكريمات عن أهم صفات الفئات الثّلاث عماد الناس المؤمنين والكافرين والمنافقين ، فهذا معناه أنّ الخطاب سيكون مشتركاً بين هذه الفئات كلّها ، وليس ثمّة قضايا مشتركة تتقدّم تبيين المبدأ والغاية من الحياة والمعاد . إنّ هذه هى القضايا الرّئيسيّة الّتى عنيت بها الآية الكريمة بعد أن بيّنت الصّفات الخاصّة بكلّ فئة ، وبعد أن بيّنت أسمى الأهداف الّتى حقّقها الفريق الفائز المفلح وهذا الهدف هو التّقوى الوجه الآخر للإحسان ، ومعروفٌ أن درجة الإحسان تعلو درجة الإيمان ، وأنّ درجة الإيمان تعلو درجة الإسلام بنصّ الحديث النبوىّ الشّريف الّذى بين أركان الإسلام والإيمان والإحسان وعرّف ركن الإحسان الواحد « بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »(٢) .

إن الآية الكريمة تأمر النّاس ، برّهم وفاجرهم ، بأن يحقّقوا الهدف الّذى خلقهم الله تعالى من أجله وهو عبادته عزّ وجلّ وحده لا شريك له وقد قال تعالى(٣) : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ إنّ الأبرار المقرّبين مطلوبٌ منهم استمرار السّير فى الخط الصّحيح الّذى يسيرون فيه ، سائلين الله تعالى بإخلاص ، أن يتقبّل منهم أعمالهم الصّالحة الّتى يريدون بها وجهه الأعلى جلّ وعلا ، منًّا منه تعالى وفضلاً . وإنّ الفجّار بحاجةٍ إلى أن يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا فوراً ، يتوبون إليه ويؤمنون ويعملون الصّالحات سائلين الله تعالى بإخلاص أن يتفضّل عليهم ويمنّ بقبول أعمالهم الصّالحة الّتى يريدون بها وجهه الكريم جلّ وعلا وإنّ فى الأمر بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له نهياً عن الشّرك وهو الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

---

(١) البحر المحيط ٩٣/١

(٢) صحيح البخارى ٢٠/١

(٣) سورة الذّاريات ٥٦

قال تعالى[١] ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ .

وقد اقترن بتبيين الغاية المهمّة من هذه الحياة ، وهى العبادة ، ذكر اسمٍ من أسماء الذّات العليّة الحسنى وهو لفظ الرّب المضاف لجماعة المخاطبين « اعبدوا ربّكم » وإنّ معانى التّربية والتّنشئة والإنعام المقترنة بلفظ الرّبّ ، واستعمال لفظ الرّب فى القرآن الكريم حينما يكون الجوّ عابقاً بشذا المحبّة والحنان ، هذا إلى ارتباط لفظ الرّب بالخصوص وارتباط لفظ الجلالة « الله » بالعموم . إنّ كلّ ذلك ممّا يلفت الانتباه إلى وجوب القيام بشكر المنعم كفاء نعمه تعالى الظّاهرة والباطنة الّتى لا يستطيع النّاس إحصاءها .

وتخصّ الآية الكريمة من بين آلاء الله تعالى الّتى لا تُحصَى نعمةً يشترك البرّ والفاجر ، المنتهى والمبتدئ فى وجوب الإحاطة بها والعمل بموجبها . أمّا هذه النّعمة فهى خلق الله تعالى العاقلين المكلّفين . أليس خالق النّاس وموجدهم من العدم هو الخليق بأن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له ، لا أن يشرك معه فى العباد آلهة ؟ ﴿ لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلَقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ﴾[٣] بلى . إنّه جلّ وعلا وحده الخليق بأن يفرد بالعبادة .

وإذا كان فى النّصّ على نعمة خلق النّاس لفتٌ للانتباه إلى المبدأ ، إلى الإيجاد من العدم أساساً ، وكان فى النّصّ بعد ذلك على خلق من قبلنا ، تعميقٌ لهذه النّظرة إلى المبدأ ، فإنّ فى النّصّ على خلق من قبلنا وراء ذلك نظرةً عميقةً أخرى إلى المعاد ، إلى المنتهى . وتفسير ذلك أنّ من قبلنا قد توفّاهم الله تعالى وهم إلينا لا يرجعون . ومعروفٌ أنّ من توفّى كأنّما قد قامت قيامته ، وبما أنّنا جميعاً مشتركون فى خلق الله تعالى لنا وقد توفّى الله تعالى من قبلنا فهذا معناه أنّ هذا هو مصيرنا ، أن نعود إلى الله تعالى وأن نلحق بالرّفيق الأعلى . وفى

---

(١) سورة النّساء ٤٨ (٢) سورة النّساء ١١٦

(٣) سورة الفرقان ٣

هذه النّظرة المزدوجة إلى المبدأ والمعاد معاً تعميقٌ لإحساسنا بضرورة العمل فى هذه الحياة الأولى من أجل الآخرة وأن نغتنم شبابنا قبل هرمنا وصحّتنا قبل مرضنا وقدرتنا قبل عجزنا وحياتنا قبل موتنا وأولانا قبل آخرتنا . وإنّ الإحساس العميق بهذه الأمور يقوّيه التّذييل فى الآية الكريمة ﴿ لعلّكم تتّقون ﴾ الّذى ينصّ على التّقوى الّتى ينبغى على النّاس جميعاً أن يحرصوا على الوصول إليها وأن يعملوا — متوكّلين على الله تعالى مستعينين به — فى سبيل الحصول عليها . ومعروفٌ أنّ صفة التّقوى هى أهمّ نعوت المؤمنين المتّقين المفلحين الّذين ابتدأت السّورة الكريمة بالنّصّ عليهم باعتبارهم ثمرة منهج القرآن الكريم والسُّنّة النّبويّة المطهّرة تربويّا . وإنّ الدّليل على كون صفة التّقوى أهمّ نعوت المؤمنين ابتداء ، الحديث عن اتّصاف المؤمنين بها . قال تعالى : ﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين ﴾ .

وإنّ النّصّ على التّقوى هنا نوعٌ من الرّباط الوثيق بأوّل السّورة الكريمة . وإنّ فى النّصّ على التّقوى دون غيرها من الصّفات ، وقد عرفنا التّقوى وجهاً آخر للإحسان أو هى الإحسان ذاته ، حثًّا للخلائق جميعًا على العمل من أجل الوصول إلى هذه الغاية الشّريفة الممكنة بعونٍ من الله تعالى وتوفيق . وبناءً على توفيق الله تعالى ثمّ على قدر أهل العزم تأتى العزائم . والقرآن الكريم يرشد إلى الأسمى دائماً ويحثّ على الأسمى أبداً .

وبما أنّ طاقات النّاس متفاوتة فى سبيل الارتفاع إلى مستوى التّقوى ، بمعنى أنّ منهم من يدركها ومنهم من لا يدركها ، فقد أوحت الآية الكريمة باستعمال أداة التّرجّى والإشفاق « لعلّ » بتفاوت الطّاقات ، واختلاف النّتيجات : ﴿ لعلّكم تتّقون ﴾ .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممّن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه ، إنّه على كلّ شىءٍ قدير . فى الصّحيحين عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله : أىّ الذّنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك » . الحديث وكذا حديث معاذ : « أتدرى ما حقّ الله على عباده ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » الحديث[1] قال تعالى :

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٧

﴿ يا أيّها النّاس اعبدوا ربّكم الّذى خلقكم والّذين من قبلكم لعلّكم تتقون ﴾ .

الآيــة رقــم (٢٢)

قال تعالى : ﴿ الّذى جعل لكم الأرض فراشاً والسّماء بناءً وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ .

تحدثت الآية الكريمة السّابقة فى خطابها لكلّ النّاس عن مجموعة من القضايا الرّئيسيّة والأمور الحيويّة الأوّليّة ، ومن هنا كان لجملة « خلق » سواءٌ أكانت ظاهرةً أم مضمرة دورها الطّبيعىّ الفعّال فى الآية الكريمة . فالله سبحانه وتعالى هو الّذى خلقنا وخلق الّذين من قبلنا من أجل هدفٍ رئيسىّ نبيل هو عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له لأنّ له وحده جلّ وعلا الخلق والأمر . فعلى الخلائق أن يحقّقوا هذا الهدف الّذى خلقوا من أجله وأن يعملوا جاهدين من أجل اتّقاء النّار الّتى وقودها النّاس والحجارة من ناحية ، ومن أجل الوصول إلى مرتبة التّقوى ، الوجه الآخر للإحسان من ناحية أخرى ، وهذه المرتبة قمّة نعوت المؤمنين المتّقين المفلحين بنصّ القرآن الكريم . فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التّالية تبيّنّا أنّها مكملةٌ لنعمة الخلق الّتى احتفت بها الآية الكريمة السّابقة ، ومتمّمة لذكر بعض نعم الله تعالى على النّاس ، ومن هنا كانت جملة جعل هى الّتى يستعملها السّياق ، وقد جاءت فى الآية الكريمة مرّتين اثنتين . وإنّه بتأمّل استعمالات القرآن الكريم فى العديد من المواضع لجملتى خلق وجعل يتبيّن أنّ جملة خلق تتعلّق بالإيجاد ابتداءً وإبداعاً ، وأنّ جملة تتعلّق بتصيير ذلك المخلوق صالحاً للقيام خير قيامٍ بالهدف الّذى خلق من أجله . فعلى سبيل المثال ، لو أنّا تأمّلنا جملة « جعل » الأولى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ الّذى جعل لكم الأرض فِراشاً ﴾ لتبيّنّا أنّ جملة « جعل » هنا تتمشّى مع المرحلة الثّانية الّتى شاء الله تعالى معها تهيئة الأرض كى تكون صالحةً لأن يعيش الإنسان عليها ، وليس بالمرحلة الأولى الّتى شاء الله تعالى معها خلق هذه الأرض . إنّ المرحلة الثّانية تتعلّق باليومين الأخيرين من الأيّام الأربعة ، الّتى نصّت عليها سورة فصّلت والمتعلّقة بالأرض . إنّ فى هذين اليومين الأخيرين تمّ بإرادة الله تعالى جعل الأرض صالحةً لجنس

الإنسان ، وتصييرها مدحوّةً وكانت غير مدحوة ، مفتوقةً بالزّرع وكانت رتقاء . وإنّ المرحلة الأولى تتعلّق باليومين الأوّلين اللّذين تمّ فيهما بإرادة الله تعالى خلق الأرض . ومعروفٌ أنّ خلق الأرض وجعلها صالحةً لأن يسكنها الإنسان كان حظّهما أربعة أيّام من الأيّام السّتّة الّتى خلق الله تعالى فيها السّماوات والأرض . وعليه يكون حظّ السّماوات يومين اثنين . وإليك هذه الآيات الكريمات من سورة فصّلت ، وننبّه إلى علاقة جملة خلق باليومين الأوّلين وجملة جعل باليومين الأخيرين . قال تعالى [١] : ﴿ قل أئنّكم لتكفرون بالّذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك ربّ العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيّامٍ سواءً للسّائلين . ثمّ استوى إلى السّماء وهى دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهنّ سبع سماواتٍ فى يومين وأوحى فى كلّ سماءٍ أمرها ، وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ . وربّما أردفنا بتقرير سورة فصّلت لحقيقة كون الأرض قد خلقت ابتداءً تقرير سورة النّازعات مثلاً بأنّ الأرض قد دحيت بعد خلق السّماوات ، قال تعالى [٢] : ﴿ أأنتم أشدّ خلقاً أم السّماء بناها . رفع سمكها فسوّاها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ . وقد بيّن ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما أنّ الأرض خلقت قبل دحو ثمّ خلقت السّماء ثمّ دحيت الأرض . جاء فى تفسير الطّبرى [٣] عن ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما : « خلق [الله تعالى] الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السّماء . ثمّ استوى إلى السّماء فسّواهنّ سبع سماوات . ثمّ دحا الأرض بعد ذلك . فذلك قوله : والأرض بعد ذلك دحاها » ومن المواضع فى القرآن الكريم الّتى يبدو فيها الدّور الواضح لجملة « جعل » والفرق الدّقيق بينها وبين جملة « خلق » الآيات الكريمات فى سورة الفرقان من الآية الكريمة الخامسة والأربعين ، إلى الآية الكريمة الرّابعة والخمسين ، ونقتطع منها الآية الكريمة الآخيرة الّتى يجمع فيها بين هاتين الجملتين دليلاً

---

(١) سورة فصّلت ٩ ــ ١٢

(٢) سورة النّازعات ٢٧ ــ ٣٣

(٣) ٢٩/٣٠

على معنيين مختلفين مترتّبٍ ثانيهما على أوّلهما . قال تعالى : ﴿ وهو الّذى خلق من الماء بشراً فجعله نسبًا وصهراً . وكان ربّك قديرا ﴾[١] فخلق الإنسان من الماء هو الأساس . وقد ترتّب على عمليّة الخلق جعله نسبًا من جهة الذّكورة وصهراً من جهة الأنوثة . والله تعالى أعلم .

وبين يدى دراستنا المتأمّلة للآية الكريمة نودّ أن نقف عند معنى مفرداتها من الوجهة اللّغوية .

فراشاً : أى وِطاءً يفترشونها ويستقرّون عليها[٢] والفراش والمهاد والبساط والقرار والوِطاء نظائر[٣] ومعنى جعلها فراشاً وبساطاً ومهاداً للنّاس أنّهم يقعدون عليها وينامون ويتقلّبون كما يتقلّب أحدهم على فراشه وبساطه ومهاده[٤] .

رزقاً : طعاماً لكم وعلفاً لدوابّكم . وقد بيّن هذا قوله تعالى : ﴿ أنّا صببنا الماء صبّا . ثمّ شققنا الأرض شقّا . فأنبتنا فيها حبّا . وعنبًا وقضبا . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غُلْبًا . وفاكهة وأبًّا . متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾[٥] أندادا : أى أكفاءً وأمثالاً ونظراء[٦] وشركاء[٧] وعدلاء[٨] قال أبو جعفر : والأنداد جمع نِدّ . والنّدّ العِدْل والمثل كما قال حسّان بن ثابت :

أتهجوه ولست له بندٍّ فشرّ كما لخير كما الفداء

يعنى بقوله : ولست له بندٍّ لست له بمِثْلٍ ولا عِدل . وكلُّ شيءٍ كان نظيراً لشيءٍ وشبيهًا فهو له ند[٩] ومعنى قولهم : ليس له ندٌّ ولا ضدّ ، نفى ما يسدّ مَسدَّه ونفى ما ينافيه[١٠] وقال المهدوىّ : النّدّ الكُفْءُ والمثل .هذا مذهب أهل اللّغة سوى أبى عبيدة فإنّه قال : الضّدّ[١١] .

---

(١) درسنا هذه الظّاهرة فى كتابنا : « تأمّلات فى سورة الفرقان ص ١٠٩ فما بعدها » .

(٢) تفسير القرطبى ص ١٩٧

(٣) البحرالمحيط ٩٧/١

(٤) الكشّاف ١٨٠/١

(٥) تفسير القرطبى ص ١٩٨

(٦) تفسيرالقرطبى ص ١٩٨

(٧) الجلالين

(٨) تفسير ابن كثير ٥٨/١

(٩) تفسير الطّبرىّ ١٢٦/١

(١٠) الكشّاف ١٨٢/١

(١١) البحر المحيط ٩٣/١

وواضحٌ العلاقة المتينة بين هذه الآية الكريمة وسابقتها . ويكفى أن نتبيّن أنّ الآية الكريمة تبدأ باسم الموصول« الّذى » المبدل من « الّذى » فى القول : « الّذى خلقكم » وحينما نضع التعبيرين متجاورين « الّذى خلقكم » « الّذى جعل لكم الأرض فراشاً » كأنّنا نفهم دلالة « خلق » فى المرّة الأولى على خلق الأرض ، وقد عرفنا أنّ من نصيب خلق الأرض يومين من الأيّام السّتّة ، وقد تمّ تجاوز هذه المرحلة إلى المرحلة التّالية مرحلة جعل الأرض صالحةً لأن يسكنها الإنسان لأنّ جملة جعل فى حقّ الأرض تعنى مرحلة الأرض ضمناً . وبهذا يتمّ التّعاون فى الآيتين الكريمتين بين جملتى خلق وجعل ، من أجل تحقيق الهدف المباشر الّذى ترمى الآية الكريمة إلى تحقيقه ، وذلك بتعداد نعم الله تعالى الّتى لا تُحْصى ، والّتى ابتدأت فى الآية الكريمة السّابقة بتبيين حقيقة خلق الله تعالى النّاس ، كى يعبد هؤلاء النّاس هذا الالٰه الواحد الّذى له الخلق والأمر وحده لا شريك له .

وإنّ تعداد نعم الله تعالى على النّاس يعتبر امتداداً لنعمة خلقهم الّتى نصّت عليها الآية السّابقة . إنّ هذه النّعم يجمع بينها كونها رئيسية ، وبذلك يشترك فى فهمها وإدراك مراميها بعيد النّظر وقريبه ، عميق التّفكير وسطحيّه . حقّاً إنّ هذه الصّفة تنطبق فى حقّ كلّ معانى القرآن الكريم الّذى يسّره ربّ العزّة للذّكر ، ووراء ذلك هى أشدّ انطباقاً فى مثل هذه الحال الّتى يعرض فيها السّياق لقضايا كبرى يحياها النّاس كالأرض الّتى يتقلّبون فيها سيراً ووقوفاً وقعوداً واضطجاعًا ونومًا ، ويتّخذون من سهولها وهى كالفراش فى انبساطه ولينه وطواعيته بيوتاً وقصورا . إنّ علاقة جنس الإنسان بالأرض المنبسطة هى الوثيقة ابتداءً ، وقد نصّ السّياق على هذه العلاقة ، وحينما يسكت السّياق الآن عن الجبال ، لأنّ علاقة الإنسان بها من حيث التقلّب والسّكنى تتأخّر عادة عن علاقته بالأرض المنبسطة ، ثمّ إنّ السّهول تقذف إلى الأذهان بالجبال ، لأنّ هذه الجبال بمثابة الأوتاد للأرض المنبسطة الفراش للإنسان . ومع أن السّياق يعرض لأمرٍ بديهىّ ﴿ الّذى جعل لكم الأرض فراشاً ﴾ ولا ننسى دور القول « لكم » الّذى لا تستغنى عنه الآية الكريمة ليس فى هذا الموضع فقط وإنّما فى موضع آخر لاحق كذلك ، فإنّ كلّ إنسانٍ

يستطيع وفق استعداده أن يتمثّل أبعاد هذا المعنى . فالقريب التّناول للمعانى يقف عند المعانى الظّاهرة القريبة المؤدية للغرض فى حقّ هذا الفريق من النّاس الّذى لا يرى من الأرض السّهلة سوى انبساطها والمنافع المباشرة الّتى تعود إليه بنعمةٍ من الله تعالى وفضل . والبعيد التّناول للمعانى يغوص فى أعماق الأرض ويرتاد أبعاد الفضاء متأمِّلاً متدبّراً واقفاً بخشوع أمام المعانى العظيمة الّتى يوحى بها تأمّل هذا الكون الضّخم الّذى خلقه الرّحمن الرّحيم الّذى لا يُرى فى خلقه شيءٌ من تفاوت . إنّ كلتا النّظرتين تؤديان إلى غاية واحدة ، هى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له فى حقّ المنصفين ، سواءٌ ذلك الّذى يغوص فى الأعماق ويجوب الآفاق ، أم ذلك الأعرابىّ الّذى سئل : ما الدّليل على وجود الرّبّ تعالى ؟ فقال : يا سبحان الله إنّ البعر ليدلّ على البعير ، وإنّ أثر الأقدام لتدلّ على المسير ، فسماءٌ ذات أبراج ، وأرضٌ ذات فجاج ، وبحارٌ ذات أمواج ، ألا يدلّ ذلك على وجود اللّطيف الخبير ؟[1] وبعد الحديث عن الأرض من الزّاوية الخادمة للهدف ، يتحوّل الحديث إلى السّماء ، ومعروف أنّ من مظاهر التّرابط بين المعانى التّضادّ والتقابل فى الصّفات . فاللّيل يقذف إلى الذّهن بالنّهار ، والسّواد بالبياض ، والأرض بالسّماء وهكذا . وبما أنّ بناء السّماوات كان من نصيبه مرحلةٌ واحدة هى مرحلة البناء ، وليس من نصيبه مرحلتان كالأرض ، فقد كان الحديث عن السّماء من زاوية هذه المرحلة الواحدة مرحلة البناء . وإنّ لفظة البناء تتفاوت قدرات النّاس على إدراك مراميها . فلعلّ ممّا يلفت انتباه القريبى التّناول للمعانى بشأن السّماء كون الكواكب زينة ووسيلةً للعلم بعدد السّنين والحساب . ولا شكّ أن هذا القدر جليلٌ فى حدّ ذاته وكافٍ لحمل المنصف على إفراد المبدع الآمر بالعبادة وحده لا شريك له جلّ وعلا . بينما يتجاوز التّناول للمعانى والمرامى هذه المرحلة إلى تأمّل هذا الملكوت المعلّق فى الفضاء ، وفيه الكرة الأرضيّة ، بيد القدرة الإلٰهية . وما الّذى يمكن أن يقال فى الدّقّة المتناهية لضبط هذا الكون بأكثر من إجماع العلماء على كون المراصد العلميّة الّتى تنقسم الثانية الواحدة من الزّمن لديها

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٨

إلى ألف جزء دليلاً على دقّتها العلميّة المتناهية بشأن الزمن ، هى بحاجة كلّ حين إلى إعادة ضبطها وفق بعض الكواكب السّيّارة ، كالشّمس الّتى جعلها الله تعالى سراجـاً ، وكالقمر الّذى جعله الله تعالى نورا !

إنّ هذا الكون رغم ضخامته الّتى لا يستطيع أن يلمّ بها خيال بشر ، وتجاوز عناصره عن حدود قدرة البشر على إحصائها وعدّها ، غايةٌ فى الدّقّة والنّظام والانضباط . إنّه على سبيل المثال من المستحيل عدّ شموس إحدى المجرّات القريبة منّا ، وهذه المجرّات تعدّ بدورها بالملايين . وقد سمعت قول واحدٍ من علماء الفلك دليلاً على دقّة مسار الكواكب الخارجة عن حدود الإحصاء بشأن المجرّة الواحدة فكيف بكلّ المجرّات : إنّه لو فرض أن انطلقت أربع ذبابات من أركان الكرة الأرضيّة فى آنٍ واحد ، فإنّ احتمال اصطدام بعضها ببعض أكثر من احتمال اصطدام كوكبين اثنين من الكواكب الّتى يغصّ بها الكون ! إنّ هذه السّماء بكلّ ما فيها قد أحكمت يد القدرة الإلٰهية بناءها ، ولا يجد المنصف شفاءً لغليله ، سواءٌ أكان قريب التّناول للمعانى أم بعيد التّناول إلاّ فى مثل قوله تعالى[١] : ﴿ إنّ الله يمسك السّماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما مِنْ أحدٍ من بعده . إنّه كان حليمًا غفورا ﴾ وقولِهِ تعالى[٢] : ﴿ ألم تر أنّ الله سخّر لكم ما فى الأرض والفُلْكَ تجرى فى البحر بأمره ويُمْسِكُ السّماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه . إنّ الله بالنّاس لرءوفٌ رحيم ﴾ .

وإنّ من جنس الانسان حينما ينظر إلى الأرض الّتى تتقدّم علاقته بها على علاقته بالسّماء ، وقد نبّه تقديم الأرض فى الذّكر إلى هذه الحقيقة ، وإلى السّماء الّتى ترتبط بالأرض بقوّة بسبب قوّة رباط التّضادّ فى الصّفات ، يكون مستعدّاً لتوسيع مدى تأمّله للأرض الّتى نُظِر إليها من زاوية كونها بساطاً وفراشاً ، وهو بصدد تنبيهه إلى بعض مظاهر النّعم الرّئيسية عليه ، يكون مستعدّاً لأن يفطن إلى مظهرٍ من أهمّ مظاهر علاقته المتينة بالأرض الّتى جعلت بساطاً ، وهذا المظهر هو المرتبط بكون الأرض فراشاً ، وبكون

---

(١) سورة فاطر ٤١ (٢) سورة الحج ٦٥

العلاقة تتجاوز مرحلة التقلّب على الأرض إلى كون الأرض مصدراً للرّزق بفعل الماء النّازل من السّماء ، علماً بأن القرآن الكريم ذاته عبّر عن الماء بكونه رزقاً . جاء فى سورة الجاثية[١] قوله تعالى : ﴿ إنّ فى السّماوات والأرض لآياتٍ للمؤمنين . وفى خَلْقِكُمْ وما يَبُثُّ من دابّةٍ آياتٌ لقَوْمٍ يوقنون . واختلاف اللّيل والنّهار وما أنزل الله من السّماء من رزقٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريفِ الرّياح آياتٌ لقومٍ يعقلون ﴾ وها هى ذى الآية الكريمة تلفت الانتباه إلى علاقة الإنسان بالأرض من هذه الزّاوية الضّروريّة الفطريّة فى آنٍ واحدٍ ، والّتى يكاد يتساوى فيها قريب التّناول للمعانى والبعيد التّناول لها . قال تعالى : ﴿ وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ إنّ الماء نازلٌ من السّماء ، وإنّ النّبات خارجٌ من الأرض ، وإنّ النّاس بفئاتهم يدركون هذه الحقيقة ولكن : ﴿ هل يستوى الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون ﴾[٢] بعيدو التّناول للمعانى وقريبو التّناول لها فى إدراك أبعاد هذه النّعمة ، نعمة الحصول على الرّزق من الأرض فى هيئة الثّمرات الخارجة بفعل الماء النّازل من السّماء ؟ بطبيعة الحال لا يستويان .

إنّ القريب التّناول للمعانى لا يجهل علاقته الوثيقة بالأرض فهى مصدر غذائه وكسائه وبالسّماء الّتى ينزل منها الماء الّذى يحيى به الله تعالى الأرض الميتة والّذى يسقيه الله تعالى الأناسىّ والأنعام . ولا يجهل أنّ الله تعالى جعل من الماء كلّ شىءٍ حىّ ، وأخرج به من الثمرات رزقاً . إنّ هذا القدر المحدود من الإدراك للمعانى فى حقّ هذا الفريق من النّاس ليس بالشّىء اليسير ولا بالأمر الهيّن ، وإنّ الأمر المهمّ حقّاً هو المترتّب عليه من شكر الله تعالى على نعمه وآلائه وذلك بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له .

وإنّ الشّخص البعيد التّناول للمعانى يستطيع أن يتبيّن ما لا يستطيع حصره من نعم على الخلائق من جرّاء نزول الماء من السّماء الّذى يحيى به الله تعالى الأرض بعد موتها . وممّا يصحّ إدراكه أنّ رحمة الله تعالى الّتى جعلت الأرض فراشاً جعلتها مقدّرة الانحدار

---

(١) الآيات ٣ ــ ٥ (٢) سورة الزّمر ٩

مضبوطته ، وبالتّالى يصحّ للماء العذب الفرات فى هيئة السّيول أو العيون أو الجداول أو الأنهار أن يتحرّك فلا يتحيّر فى موضعه ، وهو فى حركته محدود الاندفاع تبعاً لانحدار الأرض المقدّر المضبوط ، إلى أن يلتقى الماء المتحرّك العذب بالماء المتحيّر المِلحْ . وهذا الماء العذب الفرات النّازل من المزن وليد الأبخرة الّتى تكثّفت ماءً مرّةً أخرى فعادت من حيث جاءت إلى الأرض ، وإلى البحار غالباً مصدرها الرّئيسىّ أساساً . وما تحتفظ به الأرض الفراش تنتفع ببعضه فى سقى الحرث ، وربّما انتفع به الحرث مباشرة وفور نزوله من السّماء . وعن التّفاعلات الأرضيّة والسّماويّة حتّى ينتهى الأمر بنزول الماء من المزن حدّث ولا حرج ، وعن التّفاعلات الأرضيّة والسّماوية حتّى ينتهى الأمـر بخروج الثّمرات من الزّروع ممّا يأكل النّاس والأنعام حدّث ولا حرج . وإنّ هذ الشّخص البعيد التّناول للمعانى يجد شفاءً لغليله فى مثل قوله تعالى[1] : ﴿ وآيةٌ لهم الأرض المَيْتـة أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنّاتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ وفجّرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الّذى خلق الأزواج كلّها ممّا تنبت الأرض ومن أنفسهم وممّا لا يعلمون ﴾ . وفى مثل قوله تعالى[2] : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزّارعون . لو نشاء لجعلنـاه حطاماً فظلتم تفكّهون . إنّا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الّذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المُزْن أم نحن المُنْزِلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾ .

وممّا يصحّ لهذا الشخص البعيد التّناول للمعانى إدراكه كذلك بتأمّله للآية الكريمة من زاوية نظمها المعجز العلاقات الظّاهرة والخفيّة بين جزئيّات المعنى فى سبيل الوصول إلى الهدف المنشود . إنّه فيما يتّصل بالأرض مثلاً يلاحظ أنّ من متعلّقات الفراش كونها هيّنةً ليّنة غالباً ، وإنّ من متعلقات اللّين والطّواعية استطاعة الماء الولوج إليها واستطاعة الزّرع الخروج منها . ويبدو لين الأرض واضحاً وطواعيتها وكأن صفة الأنوثة غالبةٌ عليها بالنّظر إلى السّماء ، ومن متعلّقاتها العلوّ والارتفاع لاشتقاقها من السّموّ ، ومع ذلك

---

(١) سورة يس ٣٣ — ٣٦ (٢) سورة الواقعة ٦٣ — ٧٠

يبدو عليها متانة البناء وترابطه وتلاحمه ، وكأنّ صفة الذّكورة غالبةٌ عليها . وإنّ ممّا يعمّق هذه الصّفات المتقابلة فى حقّ السّماء والأرض ، بحيث تكاد السّماء تقوم بدور المذكّر ، وتكاد الأرض تقوم بدور المؤنّث ، كون السّماء ينزل منها الماء الّذى له دورٌ فى حقّ الأرض ، حيث يخرج به النّبات من الأرض الميتة ، شبيهٌ بدور ماء الذّكر فى تلقيح الأنثى . وإنّ عمليّة اللّقاح هذه بين السّماء والأرض ، تسبقها عمليّة لقاحٍ أخرى من جِنْسها ، هى الّتى تتمّ بين الرّياح ، هكذا بصيغة الجمع ، وبين السّحاب الّذى يمطر . إنّ الرّياح تقوم بدور المذكّر وإنّ السّحاب يقوم بدور المؤنّث وقد قال تعالى[1] : ﴿ وأرسلنا الرّياح لواقح فأنزلنا من السّماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ إنّ الأرض القريبة من الإنسان هيّنةٌ ليّنة بإرادة الله تعالى ، وإنّ السّماء البعيدة من الإنسان والمرفوعة دون عمدٍ مرئيّة وغير مرئيّة ، بل مرفوعة بيد القدرة الإلـٰهيّة متينةُ البناء قويةٌ صلدة . وإنّ هذه المتانة من متعلّقات عظمة بناء السّماوات ، تماماً كما كانت الأرض اللّيّنة غالباً وفى الأساس من متعلّقات عظمة الأرض الفراش . وإنّ من البناء المتين الصّلد ينزل الماء من السّحب بإرادة الله تعالى ، وإنّ من الأرض الميتة أساساً تخرج الثّمرات الّتى يأكل منها النّاس والأنعام ويحيون ، بفعل الماء النّازل من السّماء الّذى يشرب منه الزّرع والضّرع والإنسان . إنّنا بصدد سلسلة لا نهاية لها من نعم الله تعالى وآلائه .

وبما أنّ الإنسان قد كرّمه الله تعالى وحمله فى البرّ والبحر ورزقه من الطّيّبات وفضّله على كثيرٍ ممّن خلق جلّ وعلا تفضيلا ، فما واجب هذا الإنسان الّذى حباه الله تعالى بكلّ هذه النّعم والآلاء وسخّر له ما فى السّماوات وما فى الأرض وأسبغ عليه نعمه الظّاهرة والباطنة ، والّذى خلقه من أجل أن يعبده جلّ وعلا وحده لا شريك ؟ إن واجب هذا الإنسان الّذى كرّمه الله تعالى فيما كرّمه بالعقل وبالعلم أن يعبد الله تعالى وحده لا شريك له وألاّ يجعل لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد أنداداً وهو على علمٍ تامّ بأن الله تعالى له وحده جلّ وعلا الخلق والأمر وأنّ الآلهة الّتى يعبدها كى تقربّه ـــ وهو الكافر ـــ

---

(١) سورة الحجر ٢٢

إلى الله تعالى زلفى ﴿ لا يخلقون شيئاًوهم يُخلَقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشورا ﴾[١] إنّ الآية الكريمة تَدْعو إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له بالنّهى عن جعل الأنداد بعد الدّعوة الصّريحة إلى هذه الغاية الشّريفة فى الآية الكريمة السّابقة ، فثمّة تنويع فى التّعبير ، وثمّة تنبيه إلى نعمة العلم وضرورة الانتفاع به . وسنلاحظ مستقبلاً أنّ فضل الله تعالى على آدم عليه السّلام من جهة العلم عظيم ، فالله سبحانه خصّه بعلم أسماء المسمّيات وأمر الملائكة الكرام بالسّجود له عليه السّلام سجود تكريم لذاته الشّريفة ولفضل العالِم المتمثّل فيه عليه السّلام على فضل العابد المتمثّل فى الملائكة الكرام عليهم السلام .

إنّ بنى آدم لم يسلبهم الله تعالى شيئاً ممّا امتنّ به جلّ وعلا على أبيهم آدم عليه السّلام ، فواجب هؤلاء الأبناءأن يَقْدُروا هذه النّعم الّتى لا تُحْصى حقّ قدرها بأن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له وألاّ يجعلوا له أنداداً وهم العالمون بأنه جلّ وعلا له وحده الخلق والأمر . قال الشاعر الحكيم[٢] :

فيا عجباً كيف يُعْصى الإلـ ـه أم كيف يجحده الجاحد؟
وفى كلّ شىءٍ له آيةٌ تدلّ على أنّه واحد

قال عزّ من قائل : ﴿ الّذى جعل لكم الأرض فراشاً والسّماء بناءً وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ .

---

(١) سورة الفرقان ٣

(٢) نُسِب البيتان فى تفسير ابن كثير ٥٩/١ لابن المعتز ونسبا فى البداية والنّهاية لابن كثير ٢٣٢/١٠ لأبى العتاهية . والبيتان بأبى العتاهية ألصق ولسلوكه فى أواخر حياته أقرب . وفى البداية والنّهاية : « أيا عجباً ..... الواحد » .

الآيــة رقــم (٢٣)

قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى رَيْبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

ريب : شك[١] .

نزّلنا : التّضعيف فيه هنا للنّقل ، وهو المرادف لهمزة النّقل[٢] وللزّمخشرىّ اجتهادٌ لطيفٌ بشأن نزّل وأنزل ، يقول[٣] : « فإن قلت : لم قيل : ممّا نزّلنا ، على لفظ التّنزيل دون الإنزال قلت : لأنّ المراد النّزول على سبيل التّدريج والتّنجيم . وهو من مجازّ ملكان التّحدّى وذلك أنّهم كانوا يقولون : لو كان هذا من عند الله مخالفاً لما يكون من عند النّاس لم ينزل هكذا نجوماً سورةً بعد سورة ، وآياتٍ غِبَّ آيات ، على حسب التّوازل وكفاء الحوادث ، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشّعر مِنْ وجود ما يوجد منهم مفرّقاً حيناً فحيناً وشيئاً فشيئاً ، حسب ما يعنّ لهم من الأحوال المتجدّدة والحاجات السّانحة ، لا يلقى النّاظم ديوان شعره دفعة ، ولا يرمى النّاثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة . فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة جملةً واحدة . قال الله تعالى : ﴿ وقال الّذين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جملةً واحدة ﴾ . فقيل : إن ارتبتم فى هذا الّذى وقع إنزاله هكذا على مهلٍ وتدريج ، فهاتوا أنتم نوبةً من نُوَبه ، وهلمّوا نجماً فرداً من نجومه ، سورة من أصغر السّور أو آياتٍ شتّى مفتريات . وهذه غاية التّبكيت ومنتهى إزاحة العِلَل .... » ويلاحظ أنّ أبا حيّان ، المتتبّع للزّمخشرى ، له رأىٌ مخالفٌ لرأى الزّمخشرى بشأن نزّل وأنزل . يقول[٤] : « ونزّلنا قبل التّضعيف كان لازماً و لم يكن متعدّياً فيكون التّعدّى المستفاد من التّضعيف دليلاً على أنه للنّقل لا للتّكثير » .

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٩٩ وتفسير الطّبرىّ ١٢٨/١

(٢) البحر المحيط ١٠٣/١ (٣) الكشّاف ١٨٤/١

(٤) البحرالمحيط ١٠٣/١

وتَعَدِّى نزّل بعَلَى إشارةٌ إلى استعلاء المُنْزِل على المنْزَل عليه وتمكّنه منه وأنّه قد صار كالمُلابس له ، بخلاف إلى ، فإنّها تدلّ على الانتهاء والوصول . ولهذا المعنى الّذى أفادته على تكرّر ذلك فى القرآن فى آيات . قال تعالى : ﴿ نزّل عليك الكتاب بالحقّ . طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . هو الّذى أنزل عليك الكتاب ﴾[١] .

على عبدنا : يعنى محمّداً ﷺ . والعبد مأخوذٌ من التّعبّد ، وهو التّذلّل فسمّى المملوك من جنس ما يفعله عبداً لتذلّله لمولاه . قال طرفة :

إلى أن تحامتنى العشيرة كلّها وأُفْرِدتُ إفراد البعير المعبَّـد

أى المذلّل . فقال بعضهم : لمّا كانت العبادة أشرف الخصال ، والتسمّى بها أشرف الخطط سمّى نبيّه عبدا[٢] .

والسّورة : الطّائفة من القرآن[٣] لها أوّلٌ وآخر وأقلّها ثلاث آيات[٤] « والسّورة المنزلة .... والسّورة من البناء ما حسُن وطال . الجوهرىّ : والسُّور جمع سورة مثل بُسْرة وبُسْر ، وهى كلّ منزلةٍ من البناء ، ومنه سُورة القرآن لأنها منزلةٌ بعد منزلة مقطوعةٌ عن الأخرى ، والجمع سُوَر بفتح الواو ؛ .... ابن سيدة : سمّيت السّورة من القرآن سورةً لانّها درجةٌ إلى غيرها »[٥] وبهذا يتبيّن أنّ السّورة من القرآن الكريم إنّما أطلق عليها هذا اللّفظ بسبب ارتفاع منزلتها وجلال قدرها . وقديماً قال النّابغة :[٦] .

ألم تر أنّ الله أعطاك سُورةً ترى كلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذبُ

والدّعاء : الهتف باسم المدعوّ[٧] وفسّر هنا ادعوا باستغيثوا[٨] ويقول الطبرىّ[٩] : « وقوله : فادعوا يعنى استنصروا واستعينوا . كما قال الشّاعر :

فلمّا التقت فرساننا ورجالهم دعـوا يـا لَكـعبٍ واعتزينـا لعامـر

---

(١) البحر المحيط ١/١٠٣ (٢) تفسير القرطبىّ ص ١٩٩
(٣) الكشّاف ١/١٨٤
(٤) انظر الجلالين والكشّاف ١/١٨٤ والبحر المحيط ١/١٠١
(٥) لسان العرب « سور » (٦) مختار الشّعر الجاهلىّ ١/١٧٥
(٧) البحر المحيط ١/١٠٢ (٨) البحر المحيط ١/١٠٥
(٩) تفسير الطّبرى ١/١٣٠

يعنى بقوله : دعوا يا لكعبٍ استنصروا كعباً واستعانوا بهم . وأمّا الشّهداء فإنّها جمع شهيد كالشّركاء جمع شريك والخطباء جمع خطيب . والشّهيد يسمّى به الشّاهد على الشّىء لغيره بما يحقّق دعواه وقد يسمّى به المشاهد للشّىء كما يقال : فلانٌ جليس فلان يعنى به مجالسه ونديمه يعنى به منادمه . وكذلك يقال شهيده يعنى به مشاهده » . ويقول أبو حيّان[١] : « الشهداء جمع شهيد للمبالغة كعليم وعلماء . ولا يبعد أن يكون جمع شاهد كشاعر وشعراء . وليس فُعلاء باب فاعل » .

ودون : نقيض فوق وهو تقصيرٌ عن الغاية . ويكون ظرفاً . والدّون الحقير الخسيس[٢] ويقول الزّمخشرىّ[٣] : « ومعنى دون أدنى مكانٍ من الشّىء ، ومنه الشّىء الدّون ، وهو الدّنىّ الحقير . ودوّن الكتب إذا جمعها لأنّ جمع الأشياء إدناء بعضها من بعض وتقليل المسافة بينها . يقال : هذا دون ذاك إذا كان أحطّ منه قليلاً . ودونك هذا أصله خذه من دونك أى من أدنى مكانٍ منك فاختصر . واستعير للتّفاوت فى الأحوال والرّتب فقيل : زيدٌ دون عمروٍ فى الشّرف والعِلْم . ومنه قول من قال لعدوّه وقد راءاه بالثّناء عليه : أنا دون هذا وفوق ما فى نفسك . واتّسع فيه فاستعمل فى كلّ تجاوز حدٍّ إلى حدّ وتخطّى حكمٍ إلى حكم . قال الله تعالى : ﴿ لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ . أى لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين . وقال أميّة :

يا نفس مالك دون الله مِنْ واقى

أى إذا تجاوزتِ وقاية الله و لم تناليها لم يَقِكِ غيره » .

وبعد هذه الجولة مع معانى مفردات الآية الكريمة من الوجهة اللّغويّة غالباً ، نتحوّل إلى الدّراسة المتأمّلة .

لقد دعت الآيتان الكريمتان السّابقتان إلى توحيد الله تعالى ، مرّةً بالأمر بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له ، ومرّةً أخرى بالنّهى عن الإشراك مع الله تعالى غيره بجعل الأنداد . كما نبّهتا إلى عددٍ من النّعم الرّئيسيّة الّتى هى فى حكم الهواء الّذى تتوقّف عليه

---

(١) البحر المحيط ١٠٢/١ (٢) تفسير القرطبى ص ٢٠٠

(٣) الكشّاف ١٨٨/١

حياة الإنسان . وهذه النّعم هى خلق الله تعالى النّاس ، وجعل الأرض فراشاً لهم والسّماء بناءً ، وإنزال الماء من السّماء وإخراج الثّمار من الأرض . إنّ جنس الإنسان الّذى ميّزه الله تعالى بالعقل والّذى لم ير فى خلق الله تعالى شيئاً من تفاوت ولن يرى ، حينما يستعمل هذا العقل وهو من نعم الله تعالى عليه ، استعمالاً صحيحاً ، ينتهى إلى أنّه جلّ وعلا لم يخلقنا عبثاً وأنّا جميعاً إليه راجعون . وبعد الدّعوة إلى توحيد الله تعالى يتحوّل السّياق إلى إثبات نبوّة المصطفى ﷺ خير خلق الله تعالى كلّهم . وبما أنّ السّياق يتحوّل إلى مخاطبة الشّاكّين فيما نزّل الله تعالى على النّبىّ ﷺ من قرآنٍ مجيد بعد أن كان الخطاب متّجهاً إلى كلّ النّاس كى يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له ولا يجعلوا له أندادا ، فعلى المؤمنين أن يستمرّوا فى عبادة هذا الإلٰه الواحد الأحد وأن يستزيدوا منها ، وعلى غير المؤمنين أن ينضمّوا إلى المؤمنين موحّدين عابدين شاكرين . وبما أنّ السّياق فى أوّل السّورة قد تحدّث عن الثّلاث الفئات عماد النّاس ، وهم المؤمنون ، وقد عرفنا أنّ من نعوتهم الإيمان بما أنزل الله تعالى إلى المصطفى ﷺ وإلى الّذين من قبله ، فلا علاقة لهذه الفئة بالرّيب فى القرآن الكريم الّذى نعته ربّ العزّة بأنّه ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين ﴾ والفئة الثّانية المنافقون الّذين يتفاوت نفاقهم لدرجة أنّ بعضهم يقترب من درجة الكفّار وربّما انحطّ عنها إلى الدّرك الأسفل من النّار ، وأن بعضهم يقترب من درجة الإيمان ، وتشترك كلتا الفئتين فى إخفاء نفاقها وارتيابها فى القرآن الكريم . والفئة الثّالثة الكفّار ، وفى مقدّمة هؤلاء كفّار مكّة ، الّذين لا زالوا حتّى ذلك الحين يعلنون فى مجموعهم كفرهم وارتيابهم فى القرآن ، والمعروف أنّ أوّل سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة[١] وهذا معناه أنّ الخطاب يتّجه فى الآية الكريمة إلى كفّار مكّة فى المقام الأوّل ، وهذا معناه أيضاً أنّ التّحدّى بالقرآن الكريم جاء فى آيةٍ مدنيّة وفى سورةٍ مدنيّة نزلت بعد هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة ، علماً بأنّ آيات التّحدّى الأخر فى سور مكّيّة نزلت قبل الهجرة[٢] وبتتبّعنا لآيات التّحدّى فى المكّىّ من القرآن تبيّن عجيبةٌ من العجائب هى أن

---

(١) انظر الإتقان ٩٦/١ و ٤٣

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٥٩/١

السّور الّتى فيها آيات التّحدّى بالقرآن نزلت فى نسق ، وذلك على النّحو التّالى : القصص ، والإسراء أو بنو إسرائيل أو سبحان ، ويونس وهود[١] وهذه هى الآيات الكريمات . جاء فى سورة القصص[٢] قوله تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبةٌ بما قَدَّمَتْ أيديهم فيقولوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك ونكون من المؤمنين . فلمّا جاءهم الحقّ من عندنا قالوا لولا أوتى مثلما أوتى موسى ، أَوَلَمْ يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سِحْران تظاهرا وقالوا إنّا بكلٍّ كافرون . قُلْ فأتوا بكتابٍ من عند الله هو أهدى منهما أتّبعه إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتّبعون أهواءهم . ومن أضلُّ ممّن اتّبع هواه بغير هدًى من الله . إنّ الله لا يهدى القوم الظّالمين . ولقد وصّلنا لهم القول لعلّهم يتذكّرون ﴾ وجاء فى سورة الإسراء[٣] قوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجِنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا ﴾ . وجاء فى سورة يونس[٤] قوله تعالى : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يُفْترى مِنْ دون الله ولكن تصديقَ الّذى بين يديه وتفصيل الكتابِ لا ريب فيه من ربّ العالمين . أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورةٍ مِثلِهِ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . بل كذّبوا بما لم يحيطوا بِعِلْمِهِ ولّما يأتهم تأويله ، كذلك كذّب الّذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظّالمين ﴾ وجاء فى سورة هود[٥] : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفترياتٍ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أُنْزِل بعلم الله وأن لا إلٰه إلاّ هو فهل أنتم مسلمون ﴾ وهذه هى آية سورة البقرة المدنيّة الكريمة . قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

على أنّ من أهمّ ما يلاحظ على الآيات الكريمات فى مجال التحدّى ، التّدرّج من الصّعب إلى الّذى يليه أو يقاربه صعوبة ، بأن يأتوا ابتداءً بكتابٍ من عند الله هو أهدى

---

(١) انظر الإتقان ١/٤٣ (٢) الآيات ٤٧ — ٥١

(٣) الآية ٨٨ فى دراستنا المتأمّلة لسورة الإسراء تبيّن أن لفظة « القرآن » جاءت فى هذه السورة بأكثر من غيرها .

(٤) الآيات ٣٧ — ٣٩ (٥) الآية ١٣ ، ١٤

من الكتابين اللّذين أنزلا على موسى وعيسى عليهما السّلام . وإنّ عدم استجابتهم دعاءه ﷺ لهم أن يأتوا بكتاب ، معناه أنّ القوم إنّما يتّبعون أهواءهم . إنّ هذا الضّرب من التّحدّى هو المتعلّق بآيات سورة القصص . وفى سورة الإسراء يطلب منهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن «ثمّ . دعاهم أن يأتوا بعشر سورٍ مثله [فى سورة هود] ثمّ أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ مثله [فى سورة يونس] ثمّ بسورةٍ واحدة من مثله »[1] وذلك فى سورة البقرة المدنيّة . ويلاحظ زيادة حرف الجرّ من فى آية سورة البقرة ﴿ من مثله ﴾ فثمّ نزولٌ فى التدرّج من المثليّة الكاملة إلى المثليّة المشابهة أو المقاربة بشأن السّورة الواحدة المطلوبة والممثّلة لأدنى درجات التّحدّى .

وممّا يلاحظ على الآية الكريمة وراء ذلك ما يلى .

أولا : الآية الكريمة تلحق الرّيب بمعنى الشّكّ بالكفّار المخاطبين باعتبار الشّكّ نابعاً من ذوات أنفسهم ، وهذه النّظرة معمّقةٌ لنفى السّورة الكريمة فى أوّلها الرّيب عن القرآن الكريم : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ إنّ الشّكوك والرّيب نابعةٌ من ذوات الكافرين الّذين اتّبعوا أهواءهم والّذين أعمى الله تعالى أبصارهم . وذلك فى مقابل كون القرآن الكريم هدًى للمتّقين وشفاء ورحمة لهم .

ثانياً : تنصّ الآية الكريمة على مصدر القرآن الكريم وكونه تنزيلاً من ربّ العالمين . جاء فى سورة الشّعراء[2] قوله تعالى : ﴿ وإنّه لتنزيل ربّ العالمين . نزل به الرّوح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسانٍ عربيّ مبين ﴾ .

ثالثاً : تنعت الآية الكريمة المصطفى رسول الله ﷺ بكونه عبداً لله : ﴿ وإن كنتم فى ريبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا ﴾ ولفظ العبد مضافٌ إلى نون العظمة العائدة إلى الذّات العليّة ، وفى ذلك كبير دليلٍ على عظيم منزلة المصطفى ﷺ عند بارئه . والحقيقة أنّ هذا واحدٌ من المواقف العظيمة الّتى يعبّر فيها عن المصطفى ﷺ بكونه عبداً لله تعالى .

---

(١) النبأ العظيم ص ٨٤ ويلاحظ رأى الدّكتور محمّد عبد الله دراز المفهوم ضمناً بكون آية سورة هود سابقةً فى النّزول آية سورة يونس . ولهذا الرّأى فى بيان ظاهرة التّدرّج وجاهته . والله تعالى أعلم .

(٢) الآيات ١٩٢ ــ ١٩٥

إنّ ربّ العزّة الّذى يُكْرِم المصطفى ﷺ بإنزال أشرف الكتب السّماويّة عليه وآخرها والمهيمن عليها ، ينعت هذا النّبىّ المجتبى والرّسول المختار ، فى هذه المناسبة العظيمة بكونه عبداً لله تعالى . ما أسمى هذه العبوديّة للذّات العليّة وأسناها .

ومن المواقف العظيمة الّتى نُعِت فيها المصطفى ﷺ بالعبوديّة لله تعالى ، الموقف الّذى يحقّق العبد بممارسته الهدف الّذى خلقه الله تعالى من أجله ، وهو موقف العبادة لله تعالى وحده لاشريك له ، وفى أسمى صور ذلك الموقف ، ألا وهو الصّلاة عماد الدّين . جاء فى سورة الجنّ[1] قوله تعالى : ﴿ وأنّه لمّا قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ والمعنى أنّ المصطفى ﷺ حينما قام يعبد الله تعالى ببطن نخل كاد الجنّ المستمعون للمصطفى ﷺ وهو يرتّل القرآن الكريم ترتيلاً يكونون فى ركوب بعضهم بعضاً ازدحاماً لبدا . واللّبد بكسر اللاّم وضمّها جمع اللّبدة بكسر اللاّم وضمّها أيضاً : الشّعر المجتمع بين كتفى الأسد . والشّعر أو الصّوف المتلّبد .

ومن المواقف العظيمة كذلك الّتى نُعِت فيها ﷺ بالعبوديّة لله تعالى الإسراء بالمصطفى ﷺ من المسجد الحرام بمكّة المكرّمة إلى المسجد الأقصى بالقدس الشّريف ، ويرتبط بالإسراء المعراج ، بمعنى العروج بالمصطفى ﷺ إلى السّماوات العلى . جاء فى سورة الإسراء[2] قوله تعالى : ﴿ سبحان الّذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الّذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنّه هو السّميع البصير ﴾ . وليس بخافٍ دور نون العظمة من « نزّلنا » و « عبدنا » معنًى ومبنًى ، مضموناً وشكلاً ، جلالاً وجمالاً ، بهاءً ورواءً .

رابعاً : بتدبّرنا لآيات التّحدّى بالقرآن الكريم جميعها يتبيّن أنّ جملة « أتى » هى الّتى تستعمل ، وليس جملة « جاء » صِنْوِها . وممّا مَنّ الله تعالى به علينا فى دراستنا المتأمّلة لكتاب الله تعالى العزيز ، ممّا نظنّ أنّا لم نسبق إلى تبيّنه بفضل الله تعالى ، الفروق الدّقيقة بين استعمالات القرآن الكريم لجملة « أتى » ومتعلّقاتها وجملة « جاء » ومتعلّقاتها .

---

(١) الآية ١٩ (٢) الآية ١

ونبادر إلى تسجيل هذه الفروق الدّقيقة باختصار ، علماً بأنّا قرّرنا هذه الحقيقة فى العديد من المناسبات . إنّ جملة « أتى » لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد الزّمانىّ والمكانىّ والنفسىّ أو المعنوىّ . وإن جملة « جاء » لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب الزّمانىّ والمكانىّ النفسىّ أو المعنوىّ . ونضرب على ذلك بعض الأمثلة الواضحة الدّلالة على ذلك من القرآن الكريم . جاء فى سورة الأعراف[١] قوله تعالى : ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا . قال عسى ربُّكم أن يُهْلِكَ عَدُوّكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ فالّذى يرتبط بالزّمن الماضى « أتى » والّذى يرتبط بالزّمن القريب الّذى يليه « جاء » وجاء فى سورة مريم [٢] قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنّه كان صدّيقاً نبيّا . إذ قال لأبيه يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يُبْصِر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنّى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتّبعنى أَهْدِك صراطاً سويّا ﴾ فالعلم الّذى وصل الابن إبراهيم يرتبط به جملة « جاء » والعلم الّذى لم يصل الأب آزر يرتبط به جملة « أتى » وجاء فى سورة المؤمنون[٣] قوله تعالى : ﴿ أفلم يدّبّروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين ﴾ وما أكثر الأدلّة على ذلك من القرآن الكريم وقد تعمّدنا الاستئناس ببعض الأدلّة القرآنية الّتى تمّ فيها الجمع بين الجملتين معاً « أتى » و « جاء »[٤] .

فإذا عدنا إلى آية سورة البقرة تبيّن أنّ جملة « أتى » هى الّتى تستعمل دليلاً على كلّ متعلّقات هذه الجملة من البعد ، سواءٌ أكان البعد زمانياً أم مكانيًّا أم معنويّاً نفسيّا .

خامساً : إذا كنّا فهمنا من استعمال جملة « أتى » فى الآية الكريمة بعد مكان القرآن الكريم ومكانته ، وفى ذلك إشعارٌ بعجز الّذين يخاطبهم القرآن الكريم عن أن يأتوا مِنْ

---

(١) الآية ١٢٨ ، ١٢٩ (٢) الآيات ٤١ — ٤٣

(٣) الآية ٦٨ .

(٤) أشرنا إلى هذه الظّاهرة بإسهاب فى أثناء دراستنا المتأمّلة لسورة الحاقّة الصّفحات ٤٩ — ٥٨ الآية الكريمة التّاسعة : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ﴾ .

ذوات أنفسهم بسورةٍ مِنْ مِثْلِ القرآن الكريم ، فإنّ هذا العجز يتعمّق والفشل يتأكّد حينما تأمر الآية الكريمة الكفّار العاجزين بأن يستعينوا بمن شاءوا فى سبيل تحقيق الهدف الخسيس لنفوسهم الأمّارة بالسّوء بأن يثبتوا كون مصدر القرآن غير السّماء . وهذا الأمر بالاستعانة بالآخرين على غرار الأمر فى كلّ آيات التّحدّى بالقرآن الكريم . ففى آية سورة الإسراء تبيّن عجز القوم عن الإتيان بمثل القرآن الكريم ولو تعاون كلّ الإنس وكلّ الجن على ذلك ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا . وفى آيتى سورتى هود ويونس يؤمر الكفّار بأن يستعينوا بمن استطاعوا دعاءه للعون والإسعاد . وفى آية سورة البقرة يؤمر الكفّار بأن يدعوا شهداءهم . قال تعالى : ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله ﴾ وباعتبار آية سورة البقرة آخر آيات التّحدّى نزولاً ، فمن حقّنا أن نفهم أنّ لفظ شهداء ، جمع شهيد للمبالغة كعليم وعلماء ، ولا يبعد أن يكون جمع شاهد كشاعر وشعراء ، ينسحب على كلّ من دعاهم الكفار للعون ويدعونهم من إنسٍ وجنّ وآلهة يعبدونهم من دون الله وغير ذلك ، وتضيف لفظة شهداء إلى ذلك كون هؤلاء الشّهداء حضوراً يشهدون المحاولات من أجل الإتيان بمثل سورةٍ من القرآن الكريم ويدلون بشهادتهم على رءوس الأشهاد بفشل كلّ المحاولات من أجل الإتيان بمثل سورةٍ من القرآن الكريم وذهابها أدراج الرّياح .

ويلاحظ أنّ آيات التّحدّى يقترن فيها دعوة الاستعانة بتقرير الحقيقة القائمة من كون من يستطيعون ومن يشهدون « مِنْ دون الله » وفى هذا النّصّ دليلٌ على أن من يعينون فى هذا الأمر ومن يشهدون هذه المحاولة بقصد المساعدة إنّما يجمع بينهم البُعْد عن الله تعالى والانصراف عن هديه والإعراض عن صراطه المستقيم ، وكون الدّافع لهم هوى النّفس الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم . إنّ هذا الأمر كلّه بعيدٌ عن أمر الله تعالى وإذنه لأنّ الله تعالى لا يأمر بالفحشاء بل يأمر بالقسط . وأىّ فحشاء تزيد على اتّهام القرآن الكريم بكونه ليس وحياً من السّماء ولكنّه من كلام محمّد ﷺ — كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا — وتجاوز ذلك إلى الادّعاء بالقدرة على الإتيان بمثل هذا . القرآن الكريم ومحاولة ترجمة هذا الادّعاء إلى عمل .

سادساً : تختم الآية الكريمة بما يعمّق ما فهمناه من استحالة تحقّق شىء ممّا ادّعاه

الكافرون . قال تعالى : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ لقد زعم الكافرون قدرتهم على الإتيان بمثل القرآن الكريم لو شاءوا وذلك فيما جرى على لسانهم فى قوله تعالى[1] : ﴿ وإذا تُتْلى عليهم آياتُنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لَقُلْنا مثل هذا إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين ﴾ وإنّ القرآن الكريم لِيُعْلِن عجزهم ويثبت كذب ادّعائهم . إنّهم ليسوا صادقين فى زعمهم أنّهم يستطيعون أن يقولوا مثل هذا القرآن الكريم لو شاءوا . بل إنّهم لا يستطيعون أن يقولوا مثل سورةٍ من أقصر سوره ولو استعانوا بكلّ من يحرص على عونهم على هذا الضّلال من إنس وجنّ ومعبوداتٍ من دون الله تعالى ما أنزل الله تعالى بها من سلطان . أما وقد ثبت عجز الكافرين عن قبول التّحدّى بالقرآن الكريم مجتمعين وعن الإتيان بمثل سورةٍ واحدةٍ منه ، وهم الّذين يزعمون أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ وهو شخصٌ واحد ، قد أتى بكلّ هذا القرآن الكريم ، فالنّتيجة المنطقيّة لو كان القوم منصفين ويحرصون على الوصول إلى الحقيقة أن يقلعوا عن غيّهم ويكفّوا عن زعمهم المتهافت ، وينتهوا إلى كون القرآن الكريم كلام ربّ العالمين ، نزل به من السّماء مَلَكٌ من الملائكة كريم على رسولٍ من البشر كريم . وإنّ واجب الشّهداء الّذين يفترض فيهم أن يقولوا كلمة الحقّ وألاّ يدلوا بشهادة الزّور أن يكفّوا من غرب الكافرين ، وأن يتحوّلوا هم أنفسهم مؤمنين متّقين مفلحين مهتدين بنور القرآن الكريم وبنور أشرف الأنبياء والمرسلين . إنّ هؤلاء جميعاً حينما يعودون إلى جادّة الصّواب يكون التّحدّى بالقرآن الكريم قد آتى أكله وذلك بعبادة النّاس جميعاً ربّهم الّذى خلقهم والّذين من قبلهم لعلّهم يتّقون .

وثمة مسألةٌ غايةٌ فى الأهمّيّة نودّ أن نذكّر بها وهى أنّ كفّار مكّة الّذين تحدّاهم القرآن الكريم بأن يأتوا بمثله أو بعشر سورٍ مثله أو بسورةٍ مثله أو من مثله ، والّذين زعموا وقد سمعوا القرآن الكريم أنّهم يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم لو شاءوا ، ويلاحظ إشارة الكفّار إلى القرآن الكريم كما نصّت على ذلك سورة الأنفال باسم الإشارة الدّالّ على القرب : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأوّلين ﴾ كفّار مكّة هؤلاء يعتبرون خلال العصور ، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ، يعتبرون الجماعة

---

(١) سورة الأنفال ٣١

النّموذجيّة الّتى يصحّ لها وحدها دون سواها قبول التّحدّى القرآنىّ ، لو كان القرآن الكريم ممّا يصحّ للبشر أن يأتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ من أقصر سوره . والسّبب فى كون كفّار مكّة وقبيلة قريش الجماعة النّموذجيّة خلال العصور هو أنّه تحقّق لهذه الجماعة من الأسباب اللّغويّة والنفسيّة ما لم يتحقّق لسواهم فى كلا الميدانين . وحينما تنسحب هذه الجماعة من الميدان ، تاركةً ميدان الفصاحة المتفوّقة فيه ، إلى استلال السّيوف واستمراء الحتوف ، يكون معنى ذلك أنّها أعطت الدّليل الأكيد على انهزامها الشّنيع القبيح ، وعلى كون انهزامها فى ميدان الفصاحة والبلاغة ، وهو ميدانها الّذى لا تجارى فيه ولا تبارى ، دليلاً أكيداً على انهزام الإنسانيّة جمعاء أمام التّحدّى القرآنىّ إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها .

ومن أجل توضيح هذه الحقيقة نودّ بإيجاز أن نبيّن قوام الأسباب البلاغيّة والمعنويّة الّتى أتيحت لقبيلة قريش و لم تتح لغيرها والّتى رشحتها كى تكون الجماعة النّموذجيّة الّتى ينسحب موقفها من التّحدّى القرآنىّ على كلّ الجماعات الأخر ، لأنّها لم تتحقّق لها الأسباب الّتى تحقّقت لكفّار قريش . من المعروف أنّ قبيلة قريش أفصح العرب . وقد شاء الله تعالى : أن يكون فى مقدور قبيلة قريش فى الجاهليّة أن تجعل من لسانها لغةً أدبيّة لسائر العرب فى الجزيرة العربيّة الطّويلة العريضة من أقصاها إلى أقصاها . وقد تحقّق ذلك لقبيلة قريش ، رغم اختلاف العرب قبل الإسلام فى كلّ شيءٍ تقريباً ، لأسْبابٍ دينيّة ، فبمكّة المكرّمة المشاعر المقدّسة وإليها يفد العرب من أجل الحجّ أو العمرة ، وقد جعل هذا السّبب لقبيلة قريش منزلةً عاليةً فى نفوس العرب الّذين يعظّمون جميعاً البيت العتيق والمشاعر المقدّسة ، ولأسبابٍ اقتصادية واجتماعيّة ولغويّة ، فبالإضافة إلى كون مكّة مهوى أفئدة العرب ، يستفيد القرشيّون من كونهم سكّان الحرم وسدنة البيت العتيق من وفود العرب عليهم فى المواسم الدّينيّة أساساً من الوجهة المادّيّة من ناحية ، ومن الوجهة اللّغويّة من ناحية أخرى ، فقد كان باستطاعة القرشيّين وهم الّذين يزارون من قِبَلِ كلّ العرب فى عُقْر دارهم أن يقفوا على منتهى نتاج العرب فى مجال اللّغة ، وقد أتاح ذلك للقرشيّين تحقيق مجموعة من الفوائد منها أن يتحاشوا عيوب النّطق المبعثرة فى ألسنة

العرب ، وأن يستعيروا ، وهم المشهورون برهافة الإحساس ورقّة الذّوق ، ما يستحسنون من مظاهر الكمال والجمال فى ألسنة العرب . ومن هنا خلا لسان قريش مثلاً من سائر عيوب النّطق المبعثرة فى ألسنة العرب من ناحية ، كما وأنهم استعاروا ما راق لهم من ألسنة العرب من ناحيةٍ أخرى ، كالنّبر الّذى استعارته من قبيلة تميم . لقد كانت قبيلة تميم تنبر ، بمعنى أنّها تنطق الهمزة فتقول على سبيل المثال شيئاً وخاسئاً وبئر ، بينما كانت قبيلة قريش تسهّل فتجعل الهمزة ياءً فيقول : شيّا وخاسيًا وبير ، ولم يخف على القرشيّين المرهفى الإحساس الذّوّاقين للجمال أنّ النّبر أجمل من التّسهيل فاستعاروه من تميم وأصبحوا بذلك ينبرون بعد أن كانوا يسهّلون[1] .

وممّا عمّق منزلة القرشيّين لغويّاً كثرة رحلات قريشٍ التّجاريّة ، وبخاصّةٍ البرّية منها ، وما كان منها فى داخل الجزيرة العربيّة وأعماقها . وقد سجّل القرآن الكريم فى سورة قريش رحلتى الشتاء إلى اليمن والصّيف إلى الشّام . هذا إلى قرب مكّة وهى ذاتها سوقٌ تجاريّة ولغويّة عظيمة ، مِنْ أسواق العرب المشهورة كسوق عكاظ وذى المجاز ومجنّة . ومعروفٌ أنّ هذه الأسواق بالإضافة إلى كونها أسواقاً تجاريّةً اقتصاديّةً ، هى أسواق أدبيّة ، استطاعت أن تنهض نهضةً قويّة باللّغة العربيّة بعامّة ، لغة قريش بخاصّة ، تلك اللّغة الّتى اصطلح العرب فيما بينهم على اعتبارها لغةً أدبيّة لهم حينما ينظمون شعرهم ويحبّرون خطبهم . ومن البيّن أنّ هذه الأسباب لم تتحقّق وقتاً من الأوقات لأىّ قبيلةٍ سوى قبيلة قريش ، وقد أفادت قريش من هذه الميزات فى كلّ المجالات الدّينيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة والسّياسية ، كما أفادت منها فى مجال اللّغة . وستكون لنا عودة إلى الحديث عن اللّغة من زاويةٍ أخرى معمّقة لكون قبيلة قريش أوّلاً قبائل العرب ثانياً هى الجماعات الّتى يعتبر انهزامها فى مجال التّحدّى القرآنىّ انهزاماً لكلّ الجماعات إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ، وذلك بعد حديثنا عن الأسباب المتعلّقة بقبيلة قريش بخاصّة من زاوية الأسباب المعنويّة الّتى تحقّقت لها وحدها دون سائر القبائل العربيّة ممّا

---

(١) انظر على سبيل المثال دراسات فى فقه اللّغة للدّكتور صبحى الصّالح ص ٧١ .

يعتبر باعثاً قويّاً لقبيلة قريش على قبول التّحدّى القرآنىّ لو كان القرآن الكريم ممّا يمكن للبشر أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثله .

وتفسير هذه الأسباب المعنويّة أو النّفسيّة يكمن فى كون المصطفى ﷺ قد اصطفى من بنى هاشم أحد بيوتات قبيلة قريش . جاء فى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع اللّيثىّ الكنانىّ رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ الله اختار كِنانة من ولد إسماعيل ، ثمّ اختار من كنانة قريشاً ، ثمّ اختار من قريشٍ بنى هاشم ، ثمّ اختارنى من بنى هاشم[١] ولمّا كانت المنافسة على المجد بين بيوتات قريش شديدة ، فقد ذهب بعضهم إلى كون اصطفاء بنى هاشم بالنّبوّة نوعاًمن التّميّز لهذا البيت على بيوتات قريش المتنافسة على المجد ، ظناً من هؤلاء أنّ النّبوّة تخضع هى الأخرى للمنافسة والاجتهاد فى الوصول إليها والحصول عليها بعد أن تساوت بيوتات قريش فى المجد أو كادت تتساوى وهى المتنافسة فى سبيل الحصول على أكبر قسطٍ منه . ومن ذلك ما جاء فى السّيرة النّبويّة[٢] : « قال ابن إسحاق : وحدّثنى محمّد بن مسلم بن شهاب الزّهرىّ أنّهُ حُدّثِ أنّ أبا سفيان بن حَرْب وأبا جهل بن هشام والأَخْنَس بن شريق بن عمرو بن وَهْب الثّقفىّ حليف بنى زُهرة ، خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلّى من اللّيل فى بيته ، فأخذ كلّ رجلٍ منهم مجلساً يستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتّى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطّريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ثمّ انصرفوا . حتّى إذا كانت اللّيلة الثّانية عاد كلّ رجلٍ منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتّى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطّريق . فقال بعضهم لبعضٍ مثلما قالوا أوّل مرّةٍ ثمّ انصرفوا . حتّى إذا كانت اللّيلة الثّالثة أخذ كلٌّ رجلٍ منهم مجلسه فباتوا يستمعون له . حتّى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطّريق . فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتّى نتعاهد ألاّ نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثمّ تفرّقوا .

---

(١) الفصول فى سيرة الرّسول ﷺ لابن كثير ص ٨٩

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ١/٣١٥ « طبعة الحلبىّ » .

فلمّا أصبح الأخنس بن شَريق أخذ عصاه ، ثمّ خرج حتّى أتى أبا سفيان فى بيته فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمّد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والّذى حلفت به كذلك .

قال : ثمّ خرج مِنْ عنده حتّى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحَكَم ، ما رأيك فيما سمعتَ مِنْ محمّد ؟ فقال : ماذا سمعت . تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشّرف . أطعموا فأطعمنا ، وحملوا[1] فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتّى إذا تحاذينا على الرُّكب وكنّا كفرسى رهان قالوا : مِنّا نبىٌّ يأتيه الوحى من السّماء فمتى نُدْرك مِثْلَ هذه . والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه » .

إنّ مثل هذا الشّعور بالتّنافس بين بيوتات قريش على المجد ، ممّا انفرد به القرشيّون بين سائر القبائل العربيّة . فإذا جمعنا هذه البواعث النّفسية أو المعنويّة إلى إحراز قبيلة قريش قصب السّبق فى مجال التّفوّق اللّغوىّ على سائر قبائل العرب قبل الإسلام وفى فجره ، استطعنا أن نفهم لماذا كانت قبيلة قريش بحقّ هى الجماعة النّموذجيّة بين سائر القبائل العربيّة فى مجال التّفوّق اللّغوىّ . وإنّ انهزام هذه الجماعة النّموذجيّة فى مجال التّحدّى القرآنى وفرارها من ميدان الفصاحة الّذى تفوّقت فيه ومجال البلاغة الّذى بزّت أقرانها فيه ، إلى ميدان الحتوف ، وإشراع الرّماح واستلال السّيوف ، يعتبر انهزاماً لسائر القبائل العربيّة فى مجال التّحدّى القرآنى وإعلاناً عن عجزها عن الإتيان بمثل سورةٍ واحدة من أقصر سور القرآن الكريم .

بل إنّ عجز قبيلة قريش ، وهى أفصح العرب ، وهى الّتى تحقّق لها من الأسباب النّفسيّة أو المعنويّة ما لم يتحقّق ولن يتحقّق لسواها ، عن الإتيان بمثل سورةٍ واحدة من القرآن الكريم ، لا يعتبر عجزاً لسائر القبائل العربيّة فحسب ، بل عجزاً للإنسانية إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها عن الإتيان بمثل أقصر سورةٍ من سور القرآن الكريم

---

(١) يريد الدّيات يقول زهير بن أبى سلمى (مختار الشّعر الجاهلىّ ١/٢٣٩) :

وإن قام فيهم حاملٌ قال قاعدٌ رشَدْت فلا غُرْمٌ عليك ولا خَذْلُ

والسّبب فى ذلك يكمن فى كون ذهاب ذلك الرّعيل من القرشيّين وغير القرشيّين الّذين عاصروا نزول الوحى السّماوىّ على المصطفى ﷺ إلى أن لحق عليه الصّلاة والسّلام بالرّفيق الأعلى يعنى ذهاب كلّ الأسباب ، وإلى الأبد ، تلك الأسباب الّتى لم تسعف قبيلة قريش ، الجماعة النّموذجيّة حقاً ، فى عنادها وزعمها كون القرآن الكريم ليس وحياً من السّماء ولكنّه كلام محمّد بن عبد الله ﷺ . إنّ هذه الأسباب الّتى ذهبت إلى غير رجعة لم تسعف قبيلة قريشٍ على قبول التّحدّى القرآنىّ . وإنّ من أهمّ هذه الأسباب الّتى ذهبت فى مجال اللّغة إلى الأبد وإلى غير رجعة والّتى تعتبر عماد التّفوّق اللّغوىّ ، ظاهرة السّليقة اللّغويّة الّتى ماتت بموت ذلك الرّعيل الأوّل من القرشيّين ومَنْ عاصرهم . وإنّ هذه الحقيقة بحاجةٍ منّا إلى شيءٍ من تبيين . وهذا التبيين يقوم على أمرين اثنين أوّلهما المراد بالسّليقة اللغويّة وأهمّ مقوّماتها وثانيهما السّرد التّأريخىّ الموجز للّغة العربيّة من زاوية هذه السّليقة اللّغويّة بخاصّة إلى أن اختفت من الوجود وإلى أن حلّ محلّها اكتساب سليقةٍ لغويّة أخرى عن طريق التعلّم هذه المرّة وليس وليد الفطرة شأن السّليقة اللّغويّة الأولى الّتى ذهبت إلى غير رجعة .

معروفٌ أنّ اللّغة العربيّة إحدى اللّغات السّاميّة ، وأنّها تفوقت على سائر اللّغات السّاميّة لأسبابٍ متعّددة ، من أهمّها انعزال أصحابها فى جزيرتهم العربيّة الّتى تعتبر أكبر شبه جزيرةٍ فى الدّنيا ، والّتى أشبعت فى السّكّان كلّ رغبة إنْ أرادوا رعياً أو أرادوا حرباً ، إن أرادوا نُجْعةً أو أرادوا كيدا . وقد نهضت اللّغة العربيّة بخصائص اللّغات السّامية وتفوّقت فى ذلك على سائر اللّغات السّاميّة بما فى ذلك اللّغة السّاميّة الأمّ . ومِنْ أهمّ خصائص اللّغات السّاميّة ظاهرة الاشتقاق وظاهرة الإعراب . وإذا كانت اللّغات السّامية تتقدّم اللّغات الاشتقاقيّة فى هاتين الظّاهرتين ، ظاهرة الاشتقاق وظاهرة الإعراب ، فإنّ اللّغة العربيّة تتقدّم فى هذين المجالين سائر اللّغات السّامية بما فى ذلك اللّغة السّامية الأمّ .

وإنّ لظاهرة السّليقة اللّغويّة دعامتين اثنتين ، هما : أوّلاً القدرة الفطريّة على اقتناص المعانى الثّانويّة للّفظة العربيّة المشتقّة باعتبار اللّغة العربيّة مجموعةً من الأسر أو العوائل الّتى